

تَفْسِيرُ الْمَرْأِغِيِّ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء السابع والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السابع والعشرون

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ الْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الخطب : الشأن الخطير ؛ أى فما شأنكم الذى أرسلتم لأجله سوى البشارة ، إلى قوم مجرمين : هم قوم لوط ، من طين : أى من طين متحجر ، وهو السجيل ، مسومة : أى معلمة من الشومة وهى العلامة ، للمسرفين : أى المجاوزين الحد فى الفجور ، من المؤمنين : أى من آمن بلوط ، غير بيت : أى غير أهل بيت ؛ والمراد بهم لوط وابنتاه ، آية : أى علامة دالة على ما أصابهم من العذاب .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا غير مرة إن الذين قسموا القرآن إلى أجزاءه الثلاثين نظروا إلى المدّ اللفظى ولم يُعَنِّوا بالنظر إلى الترتيب المعنوى ، ومن ثم تجد جزءا قد انتهى وبدئ بآخر أثناء القصة كما هنا .

فبعد أن بشر الملائكة إبراهيم عليه السلام بالسلام — سألهم ما شأنكم وما الذى جئتم لأجله ؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم بحجارة من سجيل بها علامة تدل على أنها أعدت لإهلاكهم ، ثم نأمر من كان فيها من المؤمنين بالخروج من القرية حتى لا يلحقهم العذاب الذى سيصيب الباقين ، وسنترك فيها علامة تدل على ما أصابهم من الرجز جزاء فسوقهم وخروجهم من طاعة ربهم .

الإيضاح

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال إبراهيم لهؤلاء الملائكة : ما شأنكم ؟ وفيه أرسلتم ؟ وجاء فى سورة هود : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » . فأجابوه عما سأل :

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين) أى قالوا له : إنا أرسلنا إلى قوم لوط بالعذاب لإجرامهم ، وسنلقى عليهم حجارة من طين مطبوع كالآجر وهى فى الصلابة كالحجارة ، وفيها علامات أعدت لهلاك المسرفين .

ولما أراد سبحانه أن يهلك المجرمين ميز عنهم المؤمنين وأبعدهم منهم كما قال : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)

أى بعد أن ذهبت رسلنا إلى قوم لوط ووقعت بينهم وبينهم محاورات لم يدعُ الحال إلى ذكرها هنا — أخرجوا من كان في القرى من المؤمنين تخلصا لهم من العذاب ولم يجدوا فيها سوى بيت واحد أسلم وجهه لله ظاهرا وباطنا ، وانقاد لأوامره واجتنب نواهيه ، وهو بيت لوط ابن أخى إبراهيم عليه السلام .
عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر .

قال أبو مسلم الأصفهاني : الإسلام الاستسلام لأمر الله والالتقياد لحكمه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » .

وقد أوضح الحديث الشريف الفرق بينهما ، فجاء في الصحيحين وغيرهما من طرق عدة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الإسلام فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان . وسئل عن الإيمان ؟ فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره » .
(وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أى وجعلناها عبرة بما أنزلنا بها من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة وهى بحيرة طبرية ، لتكون ذكرى لمن يخشى الله ويخاف عذابه .

وفى الآية إيماء إلى أن الكفر متى غلب والفسق إذا انتشر لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، أما إذا كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شذمة يسيرة يسرقون ويفجرون ، فإب الله لا يأخذ الكثرة الصالحة بذنب العدد القليل من الفاجرين .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى
رُكْنَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ

وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَتَّبِعِينَ (٤٥) وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)

شرح المفردات

بسلطان مبين : أى بحجة واضحة هى معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ، والركن : ما يركن إليه الشئ ويتقوى به ، والمراد هنا جنوده وأعوانه ووزرائه كما جاء فى سورة هود «أَوْ أَوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» ، فأخذناه : أى أخذ غضب وانتقام ، نبذناهم : أى طرحناهم ، فى اليم : أى فى البحر ، مليم : أى آت بما يلام عليه ، والعقيم : أى التى لاخير فيها ولا بركة ، فلا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا ، سميت : عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، الرميم : البالى من عظم ونبات وغير ذلك ، فعتوا : أى فاستكبروا عن الامتثال ، والصاعقة : نار تنزل بالاحتكاكات الكهربية ، منتصرين : أى ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ممن أهلكهم ، فاسقين : أى خارجين من طاعة الله ، متجاوزين حدوده .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما كان من قوم لوط من الفسوق والعصيان ، وما أصابهم من الهلاك جزاء وفاقا لما اجتروحوا من السيئات تسلية لرسوله على ما يرى من قومه — عطف على ذلك قصص جمع آخرين من الأنبياء لقوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لاقى هذا الرسول الكريم ، فحققت على أقوامهم كلمة ربهم ونزل بهم عذاب

الاستئصال وصاروا كأمس الدابر عبرة ومثلاً للآخرين ، فذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون بشيراً ونذيراً فأبى واستكبر واعتز بقوته وجنده ، وقال أنا ربكم الأعلى ، فأغرق هو وقومه فى البحر . وأرسل شعيباً إلى عاد فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . وأرسل صالحاً إلى ثمود فكذبوه فأخذتهم الصاعقة ولم تبق منهم أحداً ، وبعث نوحاً إلى قومه فلم يستجيبوا لدعوته فأخذهم الطوفان . وهم ظالمون .

الإيضاح

(وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون سلطان مبين . فتولى برآ كنه وقال ساحر أو مجنون) أى وفى قصص موسى عبرة لقوم يعقلون ، إذ أرسلناه إلى فرعون بحجج ظاهرة وآيات باهرة ، فأعرض ونأى وكذب بما جاء به معتزًا بجنده وقوته وجبروته ، وقد بلغ الأمر به أن قال : أنا ربكم الأعلى ، وقال حينئذ لقومه فى شأن موسى : « إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » ، وحينئذ آخر « إِنَّهُ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » . وما مقصده من هذا إلا صرفهم عن النظر والتأمل فيما جاءه به من الآيات ، خوفاً على ملكه أن ينهار ، وعلى دولته أن يلحقها الدمار ، وإبقاء على ماله من النفوذ والسلطان فى البلاد .

ثم ذكر جزاءه هو وقومه على ما صنع فقال :

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم) أى فألقينا فرعون وجنوده فى البحر وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

وفى هذا إيماء إلى عظمة القدرة على إذلال الجبابرة وسوء عاقبتهم جزاء عتوهم واستكبارهم وعصيانهم أمر خالقهم .

ثم ذكر قصص عاد فقال :

(وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى وفى عاد آية لكل ذى لب ، إذ أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً عاتية

لم تبق منهم دياراً ولا نافخ نار ، ولا تركت شيئاً من الأبنية والعروش إلا جعلته كالشيء الهالك البالي .

وبعدئذ ذكر قصص ثمود فقال :

(وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) أى
وفي ثمود عظة لمن تدبر وفكر في آيات ربه ، إذ قال لهم نبيهم : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » ثم يحل بكم من العذاب ما لا قبل لكم به ،
فكذبوه واستكبروا وعتوا عن أمر ربهم فأرسل عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم
جميعاً وهم ينظرون إليها — جزاء ما اكتسبت أيديهم من الآثام ، وارتكاب
الخطايا والأوزار .

(فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) أى فما استطاعوا هرباً ولم يجدوا
مفرّاً ولا نصيراً يدفع عنهم عذاب الله .

ثم ذكر موجزاً لقصص قوم نوح فقال :

(وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين) أى وأهلكنا قوم نوح بالطوفان
قبل هؤلاء بسبب فسقهم وجورهم وانتهاكهم حرمة الله .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنَنْعَمُ
الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)
فَقَرِّئُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلْهًا
آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) .

شرح المفردات

الأيد والأد: القوة ، لموسعون : أى لدوسعة بخلقها وخلق غيرها؛ من الوسع بمعنى
الطاقة ، فرشناها : أى بسطانها ومهدناها من مهدت الفراش إذا بسطته ووطأته ،

وتهميد الأمور : تسويتها وإصلاحها ، ومن كل شيء : أى ومن كل جنس من
الحيوان ، زوجين : أى ذكر وأنثى ، ففروا إلى الله : أى اعتصموا بحبل الله وأقروا
بوحدانته ، إني لكم نذير مبين : أى إني لكم من عقابه منذر ونحوّف .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت الحشر وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة — أرشد إلى وحدانية
الله وعظيم قدرته ، فبين أنه خلق السماء بغير عمد ، وبسط الأرض ودحاها ، لتصلح
لسكنى الإنسان والحيوان ، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا
وأنثى ، ليستمر بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله فناء العالم ، ثم أمرهم أن يعتصموا
بحبل الله وأنذرهم شديد عقابه ، وحذرهم أن يجعلوا مع الله نداً وشريكا .

الإيضاح

(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) أى وتقد بنينا السماء بيديع قدرتنا وعظيم
سلطاننا ، وإنا لقادرون على ذلك لا يمتسنا نصب ولا لغوب .

وفى ذلك تعريض باليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة
أيام واستراح فى اليوم السابع مستلقيا على عرشه .

(والأرض فرشناها) أى ومهدنا الأرض وجعلناها صالحة لسكنى الإنسان
والحيوان ، وجعلنا فيها الأرزاق والأفوات من الحيوان والنبات وغيرها مما يكفل
بقائها إلى حين ، ووضعنا فيها من المعادن فى ظاهرها وباطنها ما فيه زينة لكم ،
فتبنون المساكن من حجارتها ، وتتخذون الحلى من ذهبها وفضتها وأحجارها
الكريمة ، وتصنعون آلات الحرب والسفن والطائرات من حديدتها
ومعادنها الأخرى .

وفي الآية إشارة إلى أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء ، لأن بناء البيت يكون قبل الفرش ، وهذا ما يثبت به العلم الحديث الآن ، وقد تقدم ذكر ذلك غير مرة .
ثم مدح سبحانه نفسه على ما صنع فقال :
(فنعم الماهدون) أى ففهم ما فعلنا ، وما أجمل ما خلقنا ، مما فيه عظة لمن يتذكر ويتدبر .

(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) أى وإنا خلقنا لكل ما خلقنا من الخلق ثانياً له ، مخالفاً له فى مبناه والمراد منه ، وكل منهما زوج للآخر ، فخلقنا السعادة والشقاوة ، والهدى والضلال ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض — لتتذكروا وتعقبوا فتعلموا أن الله ربكم الذى ينبغى لكم أن تعبدوه وحده لا شريك له — هو الذى يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا مالا يقدر على ذلك .

(فقرءوا إلى الله) أى فاجتئوا إلى الله واعتمدوا عليه فى جميع أموركم ، واتبعوا أوامره ، واعموا على طاعته ، ثم علل الأمر بالقرار إليه بقوله :
(إني لكم نذير مبين) أى إني لكم نذير من الله أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه الذى أحله بهؤلاء الأمم التى قص عليكم قصصها ، وإني مبين لكم ما يجب عليكم أن تحذروه .

ثم ذكر أعظم ما يجب أن يفر المرء منه ، وهو الشرك فقال :
(ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) أى ولا تجعلوا مع معبودكم الذى خلقكم معبوداً آخر سواه ، فإن العبادة لا تصلح لغيره .
ثم علل هذا النهى بقوله :

(إني لكم نذير مبين) أى إني لكم نذير ومحوف من عقابه على عبادتكم غيره .

ونحو الآية قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِىُّ تَنْفَعِ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٦٠) .

شرح المفردات

فتول عنهم : أى أعرض عن جدتهم ، وذكر : أى دم على الذكير والموعظة ، إلا ليعبدون : أى إلا لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم ، المتين : أى الشديد القوة ، ذنوبا : أى نصيبا من العذاب ، وأصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتئة ماء . أصحابهم : أى نظرائهم ، فويل للذين كفروا : أى هلاك لهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين فى قول مختلف مضطرب لا يلتزم بعضه مع بعض ، فبيناهم يقولون : خالق السموات والأرض هو الله إذا بهم يعبدون الأصنام والأوثان ؛ وطورا يقولون محمد ساحر ، وطورا آخر يقولون هو كاهن إلى نحو ذلك .

فَتَى عَلَى ذَلِكَ بَأْنُ ذَكَرَ أَنَّ قَوْمَهُ لَيْسُوا بِدُعَا فِي الْأُمَمِ ، فَكَمَا كَذَبَتْ قَرِيشُ نَبِيَّهَا
 ذَلِكَ فَعَلَتْ الْأُمَمُ الَّتِي كَذَبَتْ رُسُلَهَا ، فَأَحْلَى اللَّهُ بِهِمْ نَقْمَتَهُ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ،
 ثُمَّ عَجَّبَ مِنْ حَالِهِمْ وَقَالَ : أَمْوَصَى بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ بِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ لَا يَلْهُمُ قَوْمَ
 طَغَاةٍ مُتَعَدِّينَ حُدُودَ اللَّهِ لَا يَأْتُمِرُونَ بِأَمْرِهِ وَلَا يَنْتَهُونَ بِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُعْرِضَ
 عَنْ جَدْلِهِمْ وَمِرَائِهِمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ مَا أُمِرَ بِهِ وَلَمْ يَقْصُرْ فِيهِ ، فَلَا يَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ
 يَذْكُرَ مِنْ تَنْفَعِهِ الذِّكْرَى وَلَدِيهِ اسْتِعْدَادَ لِقَبُولِ الْإِرْشَادِ وَالْهُدَايَةِ ، ثُمَّ أَرْدَفَ هَذَا
 بَأْنُ ذَكَرَ أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَأْمُرَهُمْ وَيُكَلِّفَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ، لَا لِاحْتِيَاجِهِ إِلَيْهِمْ
 فِي تَحْصِيلِ رِزْقٍ وَلَا لِاحْتِضَارِ طَعَامٍ ، فَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ . ثُمَّ خَتَمَ السُّورَةَ بِتَهْدِيدِ
 أَهْلِ مَكَّةَ بِأَنَّهُ سَيُصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ مِثْلُ مَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ،
 فَأَوَّلَى لَهُمْ أَلَّا يَسْتَعْجِلُوهُ بِقَوْلِهِمْ : «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنَّا كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ، فَقَدْ حَقَّتْ
 عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يُوعَدُونَ ، وَسَيَقَعُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَمْ يَرَوْا لَهُ ،
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُ دَافِعًا .

الإيضاح

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ) أَيْ كَمَا
 كَذَبَكَ قَوْمُكَ مِنْ قَرِيشٍ وَقَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ — فَعَلَتْ الْأُمَمُ الَّتِي كَذَبَتْ
 رُسُلَهَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ ، فَيُحْمَلُ لَيْسُوا بِدُعَا فِي الْأُمَمِ ، وَلَا أَنْتَ بَيِّدَعُ
 فِي الرُّسُلِ ، فَكُلُّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا وَأَوْذَوْا فَصَبَرُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُ اللَّهِ .

وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٍ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى احْتِمَالِ الْأَذَى وَالْإِعْرَاضِ عَنْ
 جَدْلِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَبْصَرْتَهُمُ النِّعْمَةَ وَغَرَّتْهُمُ الْإِمَاهِلُ ، فَلَا تَجْدِي فِيهِمُ الْعِظَةُ وَلَا
 تَنْفَعُهُمُ الذِّكْرَى .

ثُمَّ تَعَجَّبَ مِنْ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى نِكَارِهِمْ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

(أتواصوا به ؟) أى أوصى أولهم آخرهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك منهم ؟

ثم عدل عن أن الذى جمعهم على هذا القول هو التواصى ، إلى أن الذى جمعهم على ذلك هو الطغيان فقال :

(بل هم قوم طاغون) أى بن الذى جمعهم على ذلك هو الطغيان وتجاوز حدود الدين والعقل ، فقال متأخرهم مثل مقالة متقدمهم .
ثم سلى رسوله بقوله :

(فتول عنهم فما أنت بملوم) أى فاعرض عنهم أيها الرسول ، ولا تأسف على تخلفهم عن الإسلام فإنك لم تأل جهدا فى الدعوة ، وهم مازادوا إلا اعتوا واستكبارا ، وطينانا وإعراضاً

(وذَكَرْ فَإِنْ الذَّكَرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) أى دم على العظة والنصح ، فإن الذَكَرَى تنفع من فى قلوبهم استعداد للهداية والرشاد .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى وجماعة من طريق مجاهد عن على كرم الله وجهه قال : لما نزلت « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة ، إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنا ، فنزلت « وَذَكَرْ فَإِنْ الذَّكَرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » فطابت أنفسنا .

وبعد أن بين حالهم فى التكذيب ذكر سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الذى خلقهم للعبادة بقوله :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أى وما خلقتهم إلا ليعرفونى ، إذ لو لا خلقهم لم يعرفوا وجودى ولا توحيدى ، يرشد إلى ذلك ما جاء فى الحديث القدسى « كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق فبى عرفونى » قاله مجاهد ، وروى عنه أيضا أن المعنى : إلا لآمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله : « وَمَا أَسْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » واختاره الزجاج ،

ويرى جمع من المفسرين أن المعنى : إلا ليخضعوا لي ويتذلّلوا ، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله . متذلّل لمشيئته ، منقاد لما قدره عليه ، خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا .
وهذه الجملة مؤكدة الأمر بالتذكير وفيها تعليل له ، فإن خلقهم لما ذكر يدعوه إلى تذكيرهم ويوجب عيبه التذكّر والانتعاض .

ثم ذكر أن شأنه مع عبده ليس كشأن السادة مع عبيدهم فقال :
(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى إفتى ما أريد أن أستعين بهم لجلب منفعة ولا دفع ضرر ، فلا أصرفهم فى تحصيل الأرزاق والمطاعم كما يفعل الموالى مع عبيدهم .

ثم عطف هذا بقوله :

(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) أى إنه تعالى غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم . لأنه خالقهم ورازقهم ، وهو ذو القدرة والقوة الغالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

روى أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » .

ولما أقسم سبحانه على الصدق فى وعيدهم - أخبر بإيقاع هذا الوعيد بهم يوم القيامة فقال :

(فإن الذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم) أى فإن الذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة ، وبإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله نصيبا من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم الساتمة التى كذبت رسلها .
(فلا يستعجبون) أى فلا يطلبوا منى أن أعجل بالإتيان به ، فإنى لا أخاف

الفوت ، ولا يبعثني عجز ، وهذا جواب عن قولهم : « فَأَنفَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُفْتَ مِنَ الْغَادِقِينَ » .

ونحو الآية قوله : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .

(فويل للذين كفروا من يومهم انذى يوعدون) أى فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذى وعدوه يوم القيامة حين لا تغنى نفس عن نفس شيئا ولا هم ينصرون .

خلاصة ما تضمنته السورة الكريمة

- (١) دلائل البعث من العجائب الطبيعية والعلوم النفسية .
- (٢) جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة .
- (٣) أحبار الأمم السالفة اتى كذبت رسالها .
- (٤) تسدية النبي صلى الله عليه وسلم عما بلقاه من أذى قومه .
- (٥) القرار إلى الله من هذه الدنيا الخفوفة بالخطاير .
- (٦) النهى عن الإشراك بالله .
- (٧) إخبار رسوله بأن قومه يسوا ببدع فى التكذيب بك فقد كذب رسل من قبلك .
- (٨) أمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وتذكير من تنفعه الذكري من المؤمنين .
- (٩) إخباره بأن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه .
- (١٠) وعيد الكافرين بأن العذاب سيجل بهم يوم القيامة .
- (١١) إن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذبين .

سورة الطور

هي مكية وعدة آياتها تسع وأربعون ، نزلت بعد السجدة .
عن أم سلمة « أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جنب البيت
بالطور وكتاب مسطور » أخرجه البخارى وغيره .

ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إن في ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .
- (٢) إن في نهاية كل منهما وعيدا للكافرين .
- (٣) إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى السكونية التي تتعلق
بالمعاش والمعاد ، ففي الأولى أقسم بالرياح الذاريات التي تنفع الإنسان في معاشه ،
وهنا أقسم بالطور الذي أنزل فيه التوراة النافعة للناس في معادهم .
- (٤) في كل منهما أمر النبي بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من
قول مختلف .
- (٥) تضمنت كل منهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعاني
المتشابهة بين السورتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ (٣) وَأَيَّاتٍ
الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ

يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ
بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) أَصَلَوْهَا
فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنْ مَا تَجَزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

شرح المفردات

الطور بالسريانية : الجبل ، والمراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه
موسى عليه السلام ، والمراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن
والتوراة والإنجيل ، والمسطور : أى المكتوب على طريق منظم ، فالسطر ترتيب
الحروف المكتوبة ، والرق : (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه ، والمنشور :
المفتوح الذى لاختم عليه ، والبيت المعمور : هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ،
والسقف المرفوع : هو السماء ، والمسجور : أى الموقد المحمى ، من سجر النار أى أوقدها
وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديما ،
وقد أشارت إليه الأحاديث ، فعن عبد الله بن عمر : « لا يركب رجل البحر إلا غازيا
أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » .

وقد أثبت علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها
كقشرة البطيخة ؛ أى إن نسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها كنسبة قشرة
البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل ، فنحن الآن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء
نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحسكة السد عليه ، ومن
حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى الزلازل والبراكين كبركان ويزوف
الذى هاج بإيطاليا سنة ١٩٠٩ م وابتلع مدينة مسينا ، والزلزلة التى حدثت باليابان
سنة ١٩٢٥ م وخربت مدنا بأكملها .

وتنور : أى تضطرب وترجج وهى فى مكانها . وأصل المَوْر التردد فى الذهاب والرجوع ، وقد يطلق معنى السير مطلقا كما قال الأعشى :

كَأَن مَشْيَهَا مِنْ بَيْنِ جَارَتِهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ لَارِثٌ وَلَا عَجَلٌ

وأصل الخوض : السبر فى الماء ثم استعمل فى الشروع فى كل شئ وغلب فى الخوض فى الباطل ، كالأحصار فإنه عام فى كل شئ ثم غلب استعماله فى الإحضار للعذاب ، يدعون : أى يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويخرجون فيها .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة الدالة على كمال قدرته وبديع صنعته . وعدّ منها أما كن ثلاثة : الطور والبيت المعمور والبحر المسجور - لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للمخلوقة برهم ، واختلاص من الخلق لثلاثة الخلق ، فأتقن موسى إلى الطور وخطب ربه وقال « أَتُهِكُمَا بِمَا فَعَلَ السَّمَوَاتُ مِنَّا » وقال : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » وانتقل محمد إلى البيت المعمور وناجى ربه وقال « سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وكلم برنس ربه فى البحر وقال : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وقرن الكتاب بالطور لأن موسى كان ينزل عنده الكتاب وهو به ، وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بكل هذا على أن العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون فى الباطل ويتخذون الدين هزوا ولعبا ، فيدفعون إلى النار دفعا عنيفا ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبن ، ادخلوها وفاسوا شدائدكم ، وسواء عليكم أجزعتم أم صبرتم ما لكم منها مهرب ولا خلاص .

الإيضاح

(والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور) أقسم سبحانه بهذا الجليل العظيم الشأن الذى كلم فوقه موسى وأنزل عليه التوراة التى كتبت بنظام بديع مرتب الحروف فى رق منشور ، يسهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام ، وآداب وأخلاق .

(والبيت المعمور) أى والكعبة التى يعمرها عشرات الآلاف الذين يهرعون إليها كل عام من أرجاء المعمورة ، وينسعون إليها من كل حدب ، كما يعمرها الحجاورون ثما تهركا بالعبادة فيها . وطلبوا لقبوها عند ربهم .

(والسقف المرفوع) أى والعالم العلوى وما حوى من شمس وأقار ، وكواكب ثابتة وسيارات ، وما فيه من عرشه وكرسیه وملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويعلمون ما يؤمرون ، وما فيه من عوالم لا يحصى عدتها إلا هو ، ومن جنود لا يعلم حقيقتها إلا من ذراها كما قال « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » .

(والبحر المسجور) أى والبحر المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع ما على الأرض ، ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات ، فيفسد نظام العالم وتعدم الحكمة التى لأجلها خلق .

وقد يكون المعنى — والبحر الموقد فى باطن الأرض بمنزلة التنور الحى وقد بدنا هذا فيما سبق .

ثم ذكر ما أقسم عليه فقال :

(إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع) أى إن عذاب يوم القيامة لخطب بالكافرين المكدين بالرسل ، لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يجردون من دونه مهربا ، جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الشرك والآثام ، ودسوا به أرواحهم من التكذيب بالرسل واليوم الآخر

(يوم تمور السماء مورا) أى لابس للعذاب دافع فى ذلك اليوم الذى ترتج فيه السماء وهى فى أماكنها وتمتدققون أنه لا مانع من عذاب الله ولا مهرب منه .
 (وتسير الجبال سيرا) أى وتزول الجبال من أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب ، وتطير فى الهواء ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف) ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا كما دل على ذلك ما جاء فى سورة النمل .

والحكمة فى مؤر السماء وسير الجبال - الإعلام والإنذار بأن لارجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة .

ثم بين من سيقع به العذاب حينئذ فقال :

(فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون) أى فإذا حدث ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فهلاك يومئذ لكاذبين الذين يخوضون فى الباطل ويدفعون لاهين ، لا يذكرون حسابا ، ولا يخافون عقابا .

(يوم يدعون إلى نار جهنم دَعَا) أى يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعا عنيفا .

فإذا دَعُوا منها قال لهم خزنتها تقر يعا وتوبيخا :

(هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى هذه النار التى تشهدونها هى التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، ونكذبتهم بها تكذيب للرسول الذى جاء بخبرها ، وللوحى الناطق بها .

ثم تهكم بهم وأتبعهم فقال :

(أفسخر هذا أم أنتم لاتبصرون ؟) قد كان المشركون فى الدنيا ينسبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم أنه يسحر العقول ويعطى على الأبصار ، فأتبعهم على ما قالوا مستهزئا بهم وقال لهم : هل ما ترونه بأعينكم مما كنتم تنبشون به فى الدنيا من

العذاب - حق ، أو سحرتهم أيضا كما كان يفعل بكم محمد فى الدنيا ، أو قد غُطِّيتْ
أبصاركم فلا ترى شيئا ؟ بلى إنه لحق فلم تَسَحَّرْ أعينكم ولم تُغَطَّ أبصاركم .
والخلاصة - هل فى المرئى شك أو فى أبصاركم علل ؟ لا واحد منهما بموجود ،
فالذى ترونه حق .

(اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم) أى إذا لم يمكنكم إنكارها ،
وتحقق أنها ليست بسحر ، ولا خلل فى أبصاركم فاصلوها ، وفى قوله : فاصبروا
أولا تصبروا بيان لعدم الخلاص . وانتفاء لعدم المناس ؛ فإن من لا يصبر على شئ
يحاول دفعه عنه ، إما بإبعاده عنه ، وإما بمحقه وإزالته ؛ ولا شئ من ذلك بحاصل
يوم القيامة - إلا أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، فإن الملعذب فيها إن صبر
انتفع بصبره إما بالجزاء فى الآخرة وإما بالحمد فى الدنيا فيقال ما أشجعهم وما أقوى
قلوبهم ، وإن جزع ذم وقيل فيه يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما فى الآخرة فلا مدح
ولا ثواب على الصبر .

ثم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :

(إنما نجزون ما كنتم تعملون) أى إنما تستوفون جزاء أعمالكم فى الدنيا ، إن
خيرا نخير وإن شرا فشر «وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا» بل يجازى كل أحد بعمله ، وإذا
كان الجزاء واقعا حتم كان الصبر وعدمه سواء .

والخلاصة - إن الجزاء تحتم الوقوع لسبق الوعيد به فى الدنيا على السنة
الرسول ، ولقضاء الله به بمقتضى عدله ، فالصبر وعدمه سيان حينئذ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ
تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْنُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

شرح المفردات

فأكهين : أى ضيعة نفوسهم مسرورة بما هى فيه . وقاهم : أى حفظهم ، والطعام
الهنى : ما لا يابسق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تحمة ولا سقم . وزواجناهم : أى قرناهم .
والخور : واحدتهن - خوراء ، والخور : اسوداد المقلة ، والعين : واحدتهن عينا . أى
واسعة العينين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذى لا دافع له ولا مهرب
منه - ذكر ما يتمتع به المؤمنون فى ذلك اليوم من صنوف اللذات فى المساكن والمأكـ
ل والمشارب والقرش والأزواج ، على حسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب
ليتم أمر الترغيب بعد التهريب حتى يكون المرء بين عاملين على رهبة من بطش ربه
والرغبة فى رحمته ، وكلاهما لا غنى للمرء عنه ، ليكمل صلاحه . ويرعوى عن غيه ،
ولا يقنط من رحمة ربه .

الإيضاح

(إن امتقين فى جذات ونعيم . فأكهين بما آتاهم ربهم) أى إن الذين خافوا
ربهم وأخلصوا له العبادة فى السر والعلن وأدّوا فرائضه . ونحووا بآداب دينه .
واتقوا عن معاصيه . ولم يندسوا أنفسهم بالآثام . ولم يندسوا أرواحهم بالذنوب ،
يجازيهم ربهم جزاءً وفاقاً بجنات يتنعمون فيها ويجدون ما لا عين رأت ، ولا
ذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جميل الأعمال فى الدنيا ،
وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها ، وما صبروا عليه من مكارهها ، ابتغاء رضوانه .
وهم فيها قرو الأعين طيبو النفوس ، لا يشغلهم شاغل ، ولا يجدون همًّا ولا نصباً ،
ولا يكدر صفو عيشهم مكدر .

وقوله في جنات ونعيم لبيان أن حالهم كحال من يتمتع بالبستان، وكالفاطور الذى يجرسه،
وقوله : فاكهين : بشرة إلى أن فلو بهم لا يشغلهم ولا نصب ، بل هم في لذة وسرور ،
وفرح وحبور

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال :

(ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أى وقد نجىهم ربهم من عذاب النار ، فلم يمسسهم
نظامها ، ولم يحسوا بأذاها ، فهم قد لا بسوا نعم ، وجانبوا النقم ، وذلك هو الفوز
العظيم ، والنعيم المقيم
ثم ذكر أنه يقال لهم حينئذ :

(كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) أى كلوا بما رزقكم ربكم من الطيبات
واشربوا مما لاء وطاب ، هنيئاً أى لا تخافون أذى ولا غائلة كما تشهدون مثل ذلك في
طعام الدنيا وشربها ، كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال ، وآثرتهم من تعب الدنيا براحة
الآخرة . قيل للربيع بن خيثم وقد صلى طوال الليل : أتعبت نفسك ، فقال :
راحتها أطلب .

ونحو الآية قوله تعالى «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ» .
وفى قوله (هنيئاً) إشارة إلى حلوى الماء كل والمشارب مما ينقصهما ، فإن الأكل
قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام ، أو يخاف النفاد فيحرص عليه ، أو يتعب
في تحصيله وتهينته بالطبخ والإنضاج ، ولا يكون شيء من هذا في الآخرة .

وفى قوله (بما كنتم تعملون) إيداء إلى أن هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به في الدنيا
فلا من عليهم فيه ، بل كان المن عليهم في الدنيا ، بهدايتهم للإيمان ، وتوفيقهم
لصالح الأعمال كما قال «يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا مَعَكُمْ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ هَذَا لَكُمْ لِلْإِيمَانِ» .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(ممتكئين على سرر مصفوفة) أى يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار

بعض ، جِسة المتكى الذى لا كلفة عليه ، ولا تكلف لديه ، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجس ولا يتكى ، ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء ، فخاله حال اطمئنان ورفع كلفة وخلو بال .

ونحو الآية قوله « عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الأزواج فقال :

(وزوجناهم بحور عين) أى وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حسنا واسعات العيون .

وهذا وصف يتمدح به العربى إذا ذكر جمال المرأة .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأَنِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) .

شرح المفردات

التناهم : أى أقمصناهم ، رهين : أى مرهون بعمده عند الله ، والعمل الصالح يفكه ، والعمل الطالح يوقه ، وأممدناهم : أى زدناهم ، مما يشتهون : أى من صنوف النعماء ، وضروب الآلاء ، يتنازعون : أى يتجادون تجاذب ملاعبة وسرور ،

والكأس : الإناء بما فيه من الشراب فإنه الراغب ، وقد يسمى كل منهما على انفراد كأسا ، لانغو فيها : أى فى شربها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسقط الكلام ، ولا تأثم : أى ولا يفحشون فى القول كما هو ديدن الندامى فى الدنيا ، فإنهم كثيرو اللغو فعالون للأثام ، غلمان : أى ممالك مختصون بهم ، مكنون : أى مصون فى أصدافه لم تقله الأيدى فهو يكون أبيض صافى اللون ، والسموم النار والبر : الواسع الإحسان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما مجتمع به أهل الجنة من لطاعم والمشارب والأزواج كرمًا منه وفضلا - أردف ذلك بذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام ، وهو أن يُلحق بهم ذريتهم المؤمنة فى المنازل والدرجات ، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك . لتقرّبهم أعيانهم إذا رأوهم فى منازلهم على أحسن الأحوال ، ويرفع الناقص فى عمله إلى الكامل فيه ، ولا ينقص من عمله هو ولا منزلته .

قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى المنزلّة ، لتقرّبهم عينه ، وقرأ الآية ، ثم وصف حالهم إذ ذاك فى الطعام والشراب والفاكهة ، فأبان أنه ما من فاكهة أو طعام يطلبونه إلا وجدوه ؛ ثم أتبع هذا ببيان عظيم حبورهم وسرورهم ، فإنهم يتجاذبون الكؤوس ، ويتندرون بأطيب الأحاديث التى لانغو فيها ولا يأثم بها قائلها لو كان فى الدنيا ، وتخدمهم ممالك غاية فى الحسن والجمال ، ويتحدثون بما كان لهم من شؤون وأحوال فى الدنيا كما هو شأن ناعمى البال فريرى الأعين .

ثم ذكر أن من أحاديثهم أنهم كانوا فى دنياهم يخشون ربهم ويخافونه ، ومن ثمّ وفاهم عذاب النار .

الإيضاح

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، أي إن المؤمنين إذا اتسقتهم ذريتهم في الإيمان باحفظهم ربهم بآبائهم في المنزلة فضلا منه وكرما وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم ، لتقر بهم أنفسهم ، ويكمل بهم فرحهم وجبورهم ، لوجودهم بينهم .

روى ابن مردويه والطبراني عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال له : إنهم لم يبلغوا درجتك ، وعملك ، فيقول : رب قد عملتُ لى وهم فيؤمر بالخاقهم به » .

(وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي وما ألتصنا شوبات الآباء وحططنا درجاتهم ، بل رفعنا منزلة الأبناء تفضلا منا وإحسانا .

وبعد أن أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم . أخبر عن مقام العدل وهو ألا يؤخذ أحد بذنب أحد فقال :

(كل امرئ بما كسب رهين) أي كل امرئ مرتبه بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً ، وقد جعل العمل كأنه دين والمرء كأنه رهن به ، والرهن لا ينفك ما لم يؤد الدين ، فإن كان العمل صالحاً فقد أدى الدين ، لأن العمل الصالح يقبده الله ويصعد إليه ، وإن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص ، إذ لا يصعد إليه غير الطيب .

ونحو الآية قوله « كل نفس بما كسبت رهينة » . إلا أصحاب اليمين » أي إن كل نفس رهن بعملها عند الله لا يفك رهنها إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم .

وبعد أن ذكر وجوه النعيم في سلف ذكر أنه يزيد على ذلك حين نفينا مما يشتهون من فنون النعماء فقال :

(وَأَمْدَنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مَّا يَشْتَهُونَ) أى وزدناهم على ما سلف فواكه وحموماً من أنواع شتى مما يستعجاب ويشتهى ، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا .
وذكر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى ، لأنهما طعام الترفين في الدنيا

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شربهم وسرورهم لدى احتسابهم له فقال :
(يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأَنٍّ) أى يتجادلون السكورس في الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى فيما بينهم لشدة سرورهم كما قال الأخطل :
نَازَعْتُهُ طَيِّبَ نَرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارَى
وإيس في الشرب في الآخرة ما فيه من الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ،
ومن الفحش في القول ، كما يتكلم به الشارب فيها ، وقد أخبر سبحانه في موضع آخر عن حسن منظرها - وطيب مطعمها فقال «بَيْضَاءُ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» وقال : «لَا يُصْذَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ» .

ثم ذكر ما لهم من خدم وحشم في الجنة فقال :
(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) أى يطوف عليهم بالسكورس مما يليك لهم . يتصرفون فيهم بالأمر والنهي والاستخدام كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في الأصداق في الحسن والبهاء .

ونحو الآية قوله تعالى : «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَدَّرُونَ . يَا كُوفٍ وَابْرِئِ وَكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ» .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : «بلغنى أنه قيل يارسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : والذي نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» .

وروى «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجىء ، ألم يباركه لَبَيْكَ لَبَيْكَ»

ثم بين أنهم في الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض في أحوال الدنيا فقال :
(وأقبل بعضهم على بعض يتسألون) أى أقبلوا يسأل بعضهم بعضا في الجنة
عن حاله وما كان فيه من نعب الدنيا وخوف العاقبة ، ثم يحمدون الله الذى أذهب
عنهم الحزن والخوف وأنهم وما كانوا فيه من الكدر والتكد لطلب المعاش وتحصيل
الأرزاق ، وما وصلوا إليه ، تلذذا بالنعمة واعترافا بها .

أخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل
أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يجاذى سرير هذا
فيتحدثان ، فيتكىء ذا ويتكىء ذا فيتحدثان بما كانوا في الدنيا فيقول أحدهما لصاحبه
يا فلان أتدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ اليوم الذى كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله
فقفر لنا »

ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضا فقال :
(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) أى قالوا
إنا كنا فى دار الدنيا ونحن بين أهلها خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ،
فتفضل علينا وأجارنا مما نخاف .

والمقصود إثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى ، فإن
وجودهم بين أهليهم مظنة الأمن ، فإذا خافوا فى تلك الحال فلأن يخافوا
فى غيرها بالأولى .

روى أن عائشة قالت : « لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر
الأملة لأحرقت الأرض ومن عليها » .

ثم تمموا العلة فى استحقاقهم للكرامة فى تلك الدار بقوتهم :
(إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) أى إنا كنا نعبد ونسأله أن
يمن علينا بالمغفرة والرحمة ، فاستجاب دعاءنا وأعطانا سؤلنا ، لأنه هو المحسن الواسع
الرحمة والفضل .

وكل من المؤمن والكافر لا ينسى ما كان له فى الدنيا ، وتزداد لذة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة ، ومن الضيق إلى السعة ؛ وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف ، ومن النعيم إلى الجحيم .

فَذَكَرْهُ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَّبِصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ
يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا
صَادِقِينَ (٣٤) .

شرح المفردات

فذكر : أى فأنبت على ما أنت عليه من التذكير ، والكاهن : من يخبر بالأخبار
الماضية الخفية بضرب من الظن ، والعراف : من يخبر بالأخبار المستقبلية كذلك قاله
الراغب ، وتربص : أى نلتظر ، ولمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه وصروفه
قال أبو ذؤيب :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ وَالدهرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ يَجْزَعُ
وَقَالَ آخِرُ :

تَرَبَّصْ بِهَارِيبِ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا تُطَلِّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا

الأحلام : العقول ، والطغيان : تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ، تقوله : أى
اختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في سبف أن العذاب واقع بالكافرين لاحتالة ، وأن الفريقين المصدقين
والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول على الحق المبين الذى من كذبه باء
بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه — أمر رسوله هنا
بالتبأت على التذكر والمنوعة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه
هو الغالب حجة وسيقا في هذه الدار . ومنزلة ورفعة في دار القرار ؛ ثم ذكر تناقض
أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم . وإلى أنهم ما عرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى ،
لا اتباعا للدليل والبرهان . في ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى ،
إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا وأبينهم قولا منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد
من الجنون والسكرانة ، إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب ، فإن السكران
كانوا من السكرانة وكان قلوبهم مغمما ، فإن هذا من الجنون ، ثم ترقوا في نسبته إلى
الكذب فقاموا به شاعر أعذب الشعر أ كذبه . ثم فمألف نصير عليه ولنتربص به
صروف الدهر وأحداثه ، فسبكون حاله حال زهير والندبة وأخبرهم ممن انقضوا
وصاروا كأمس الدابر ، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله : « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » ثم زاد في تسفيه أعمالهم بأن مصدر هذا التكذيب
إما ككتاب أنزل عليهم بذلك وإما أن عقوبتهم تأمرهم بما يقولون ، لا بل الحق أنهم
قوم طاغون يفترون ويقولون ما لا دليل عليه لا من كتاب ولا مقتضى له من عقل ،
ثم زادوا في الإنكار ونسبوه إلى التقول والافتراء ، فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل
أقصر سورة من مثل هذا المفتري إن كانوا صادقين ، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون
فليقولوا ما تسوّل له أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم ، فهم لا أحلام لهم تميز الحق
من الباطل . والغث من السمين فامض لشأنك . ولا تأبه لمقالمه فالله معك ، وإن
يترك شيئا من أعمالك .

الإيضاح

(فذكر ما أتت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى فذكر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم ، وعظمهم بالآيات ولذكر الحكيم ، ولا تكثرت بما يقولون مما لاخير فيه من الأباطيل . وقد انتفت عنك الكهانة والمجنون بسبب نعمة الله عليك ، وهذا كما يقول القائل : « أنا بمسرح بحمد الله وغناه ، والمراد بذلك الرد على القائلين بذلك وبطلاله ، فإن ما أوتيته من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعل وصدق النبوة لكاف جد نسكفاية في دحض هذا وأشباهه . ومن قال إنه كاهن تنبئة بن ربيعة ، ومن قال إنه مجنون عقبة بن أبى معيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا في الإنكار عليه فقال :

(أم يقولون تدعنا نتر بص به ريب المنون) أى بل هم يقولون : هو شاعر نتر بص به أحداث الدهر ونكباته من موت أو حادثة منسفة

روى أن قريشا اجتمعت في دار الندوة وذهبت مذاهب شتى في صد دعوته صلى الله عليه وسلم ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم . وماذا يفعلون في الخلاص منه ، فقال قائل من بني عبد الدار : نر بصوا به ريب المنون فإنه شعر وسبهك كما هلك زهير والنابعة والأعشى ، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية .

وخلاصة هذا — إنا نبتعد من يذاته ، ونتقى لسانه مخافة أن يغلبنا بقوة شعره وإنا سبيلنا معه أن نصبر عليه ونتر بص موته كما مات الشعراء من قبله .

فأمره الله أن يهددهم ويتهمهم بقوله :

(قل تر بصوا فإنى معكم من المتر بصين) أى انتظروا وتمهلوا في ريب المنون ، فإنى متر بص معكم منتظر قضاء الله في فيكم ، وستعلمون لمن يكون حسن العاقبة والظفر في الدنيا والآخرة .

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل تأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول ،

فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون ، وفرق عظيم بين من زال عقله ، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين ، ومن يجعل قوله حجة في معرفة أخبار الغيب ، ويعتقد أن الجن توحى إليه بما يقول :

وقصارى هذا : إنهم لا أحلام لهم ولا عقول .

ثم ذكر السبب الحق في كل ما يعملون فقال :

(أم هم قوم طاغون) أى بل الحق : إن الذى حملهم على أن يقولوا ما قالوا ، هو طغيانهم وعنادهم وضلالهم عن الحق .

(أم يقولون تقوله) أى أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ .

(بل لا يؤمنون) أى إن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ما قالوا .

ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم في دحض ما قالوا فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى إن كان شاعرا فليدرك الشعراء الفصحاء ، أو كاهنا فليدرك الكهان الأذكىاء ، وإن كان قد نقوله فليدرك الخطباء الذين يجبرون الخطب ويحيدون القول في كل فنون الكلام ، فهم فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هي متوافرة لديه ، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب النظم والنثر وحفظ أيام العرب ووقائعها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم .

أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِطْرُونَ (٣٧)
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

شرح المفردات

من غير شىء: أى من غير خالق ، خزائن ربك : أى خزائن رزقه ، المسيطرون: أى الفاهرون المسلطون عليها ، من قولهم: سيطر على كذا : إذا راقبه وأقام عليه ، سلم : أى مرتقى إلى السماء ، بسلطان مبين: أى بحجة واضحة تصدق استماعه ، مغرم : أى التزام غرامة تطلبها منهم ، مثقلون : أى محملون ثقلًا ، الغيب : أى علم الغيب ، كيدا : أى شرا ، المكيدون : أى الذين يحيق بهم الشر ويعود إليهم وباله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وردّ عليهم ما زعموه من أنه كاهن أو شاعر أو مجنون ، وأمره أن يمضى لطِيقته ويذكر الناس ويبشرهم وينذرهم ولا يأبى لمقاتلتهم ، فالله ناصرهم عليهم - انتقل إلى الرد عليهم فى إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين أو لادعائهم لله شريكا كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا: للملائكة بنات الله ، وقالوا: مانعبد الأوثان والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وبعد أن أقام عليهم الحجة فى كل ذلك ، وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئا ، فالله ناصرهم عليهم ، وسيظهر دينه ، ويتم له الغلبة والفلاح عليهم .

الإيضاح

(أم خاوا من غير شيء) أى كيف يشكرون الخالق الموجد ؟ ، فهل هم وجدوا من العدم ؟ وهل هم خلقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد ؟ والعقل يشهد بأن كل ما يوجد من العدم لا بد له من موجد .

(أم هم الخالقون) أى بل أهم وجدوا أنفسهم ؟ والضرورة والعقل يكذبان ذلك ، إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدما في الوجود على نفسه ، فهم باعتبار أنهم خالقون مفدّمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا بين البطلان .
(أم خلقوا السموات والأرض) أى لو فرض أنهم خلقوا أنفسهم ، فهل هم يجرءون ويقولون إنهم خلقوا هذه الأجرام العظيمة التي تتوقف عليها حياتهم ، وفيها أسباب معاشهم وهى السموات والأرض ؟ — أظن أنهم لا يدعون ذلك .

(بل لا يوقنون) أى ليس واحد مما تقدم يمكن أن يدعوه ، بل حقيقة أمرهم أنهم لا يوقنون بما يقولون إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ فقالوا : الله ، إذ لو أيقنوا بذلك ما أعرضوا عن عبادته .

(أم عندهم خزائن ربك) أى بل أهم يتصرفون في الملك ويبدعهم مفاتيح الخزان ؟ فيعطوا النبوّة من يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون .

(أم هم المصيطرون) أى أم هم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر العالم ويدنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم . والمراد أنه ليس الأمر كذلك ، بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

روى البخارى عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالصور ، فما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء » أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون » كاد قلبي يطير ، وكان جبير بن مطعم

قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء الأسارى . وكان إذ ذاك مشركا . فكان سماعه هذه الآية من جملة ما حمله على السخول في الإسلام بعد ذلك .

(أم لهم سَلَمٌ يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) أى أم لهم مرتقى إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب ، فهم لذلك مستمعون بما هم عليه ، فإن كانوا يدعون ذلك فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ، كما أتى محمد صلى الله عليه وسلم بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه .

وبعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بتاتارد على من قالوا : الملائكة بنات الله ، وسفه أعلامهم ؛ إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين فقال :
(أم له البنات واسكن البنون) أى بل أربكم البنات ونسكن البنون ؟ « تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » .

وفى هذا إيحاء إلى أن من كان هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت ، وسماع كلام رب العزة والجبروت .

(أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) أى بل أنسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ماتدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته — أجرا تأخذه من أموالهم فهم من ثقل ما حملتهم من المغمم لا يقدرّون على إجابتك إلى ماتدعوهم إليه ؟
(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) أى أم عندهم علم فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا وينبئونهم بما أرادوا — نيس الأمر كذلك ، إذ لا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله .

فالفتادة : وهذا جواب لقولهم : نتربص به ريب النون ، فيقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يموت قبلهم .

(أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) أى بل يريد هؤلاء المشركون

بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول، فإن كان هذا ما يريدون فكيدهم راجع إليهم ووباله على أنفسهم ، فتق بالله وامض لما أمرك به .

قال في فتح البيان : والظاهر أنه من الإخبار بالغيب ، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة ، ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا من كلمة (أم) وهي خمس عشرة ، فإن بدرا كانت في الثانية من الهجرة وهي الخامسة عشرة من النبوة ، وأذلهم في غير موطن ، ومكر سبحانه بهم ومكروا ، ومكر الله والله خير للماكرين اه .

(أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون) أى ألهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذاب الله ؟ تنزه ربنا عن الشريك وعما يعبدونه سواه .
وفي هذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله تعالى .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤)
فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ
النُّجُومِ (٤٩) .

شرح المفردات

كسفا : أى قطعة ، مركوم : أى متراكم ملقى بعضه على بعض ، يصعقون :
أى يُقتلون ، دون ذلك : أى قبله ، وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ،

بأعيننا : أى فى حفظنا وحراستنا ، وإدبار النجوم : أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مزاعمهم فى النبوة وبين فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة ، ثم أعقبه بالرد عليهم فى جحودهم للألوهية إما بإنكارها بثنائاً ، وإما بادعاء الشريك لله ، أم باتخاذ الولد ، سبحانه وتعالى عما يصفون - أردف هذا ببيان أن هؤلاء قوم بلغوا - عدا فى العناد أصبحوا به يكابرون فى المحسات فضلاً عن المعقولات ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لامرده ، يوم لا تنفعهم حياتهم وشراكم ، اتى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون هم إذ ذاك ولياً ولا نصيراً ، وأن الله سيصيبيهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرهم عليهم وكائنك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ومن مجلسك . وحين تغيب النجوم ويصبح الصباح وتفرّد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، ربُّ الملائكة والروح .

الإيضاح

(وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مراكوم) أى إن هؤلاء قوم دندنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ماسألوا من الآيات ، فعابنوا كسفاً من السماء ساقطاً - لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين ، وتسمعه الآذان .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم فقال :
 (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) أى فدعهم وشأنهم ، ولا تكثر
 بهم حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسينات أعينهم ، وهو يوم بدر . قاله البقاعى
 وهو الظاهر فى الآية .

(يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) أى وفى هذا اليوم لا تنفعهم
 الحيل التى دبروها لمناصبتهم صلى الله عليه وسلم العدا ، ولا يحسبون هم نصيرا ولا معينا
 يدفع عنهم ما يحقق بهم من العذاب .

(وإن للذين ظلموا عذابا نرون ذلك) أى وإن للظالمين الذين ظلموا أنفسهم
 بالكفر والمعصى عذابا بالقحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر لأنه كان فى السنة
 الثانية للهجرة والقحط وقع لهم قبلها .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعد له
 فى الدنيا والآخرة ، وأنا سنبتليهم بالمصائب ، نعلمهم يرجعون وينيبون إلينا .
 ونحو الآية قوله : « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) أى واصبر على أذاهم ولا تبطل بهم ، وامض
 لأمر الله ونهيه وبلغ ما أرسلت به ، فإنك برأى منا نراك ورى أعمالك ، ونحفظك
 ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى .

(وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى ونزه ربك عما لا يليق به لإنعامه عليك ،
 وابعده بالتلاوة والصلاة حين تقوم من مجلسك ، قال عطاء وسعيد وسفيان الثورى
 وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله ومحمده
 أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يحلسه .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخر عمره إذا قام

من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل يارسول الله : إياك لنقول قولاً ما كنت تقولهُ فيما مضى ، قال كفارة لما يكون في المجلس » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه وابن أبي شيبة .

وروى « أن جبريل علم النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .
(ومن الليل فسبحه وإذبار النجوم) أى وسبحه في صلاة الليل ، لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ، وحين إذبار الليل بظهور ضوء الصبح ، وقيل المراد من التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، ومن إذبار النجوم ركعتا الفجر .
وقد روى ذلك عن عمر وعليّ وأبي هريرة والحسن رضى الله عنهم أجمعين .
ونحو الآية قوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » .

خلاصة ما حوته السورة الكريمة

من العظائم والزواجر

- (١) القسم بالعالم العلوى والسفلى على أن العذاب آتٍ لا محالة .
- (٢) وصف عذاب النار وما يلاقيه المكذبون حينئذ من الذلة والمهانة .
- (٣) وصف نعيم أهل الجنة وما يتمتعون به من اللذات في مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزواجهم وخدمهم وحشمهم .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبات على تبليغ الرسالة والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم : هو شاعر ، هو كاهن ، هو مجنون ، هو مفتر .

- (٥) إثبات الألوهية بالبراهين التي لا تقبل جدلاً .
- (٦) النعى على المشركين في قولهم : الملائكة بنات الله .
- (٧) بيان أنهم بلغوا في عنادهم حداً ينكرون معه المحسوسات التي لا شك فيها .
- (٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى كانوا يوعدون .
- (٩) الإخبار بأن الظالمين فى كل أمة وكل جيل يعذبون فى الدنيا قبل عذابهم فى الآخرة .
- (١٠) الإخبار بأن الله حارس نبيه وكالته . فلا يصل إليه أذى من خلقه كما قال سبحانه « وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ » .
- (١١) أمره صلى الله عليه وسلم بالذكر والتسبيح آتاء الليل وأطراف النهار ، وفى كل موطن ومحاسن يقوم به .

سورة النجم

هى مكية إلا آية ٣٢ مدنية ، نزلت بعد سورة الإخلاص ، وعدد آياتها ثمان وستون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة قبلها ختمت بقوله : وإدبار النجوم ، وبدأت هذه بقوله : والنجم إذا هوى .

(٢) إن السورة قبلها ذكر فيها تقوّل القرآن وافترائه ، وذكر هذا فى مفتتح هذه السورة .

(٣) إنه ذكر فى التى قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم ، وفى هذه ذكر ذرية اليهود فى قوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » .

(٤) إنه قال هناك فى المؤمنين : « أَلْخَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقال هنا فى الكفار : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَسْعَى » .

وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى « أن أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيت أنه أخذ كفاً من تراب فسجد عنيه فرأيت أنه بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ الْهَوَى (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيَ يُوحَى (١) سَلَمَةٌ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)
 ذُومَرَةٌ فَاسْتَوَى (٦) بِمَنْزِلِ الْأُنثَى (٧) تَنَزَّلَتْ فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ
 قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ
 مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣)
 عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَخْشَى السَّادِرَةَ
 مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
 الْكُبْرَى (١٨) .

شرح المفردات

المراد بالنجم : جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ، يقال هوى النجم هويًا
 (بالفتح) أى سقط وغرب ، وهوى : (بالضم) إذا علا وصعد ، ماضل : أى ماحد
 عن الطريق المستقيم ، صاحبكم : أى مصاحبكم والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم
 بعنوان المصاحبة لهم إيدان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خبرا
 ببراءته مما نسب إليه ، وبانصافه بالهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له ومشاهدتهم
 لشئونه العظيمة تقتضى ذلك ، ففى هذا تأكيد لإقامة الحججة عليهم ، وما غوى : أى
 وما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا تقييد ، وما ينطق عن الهوى : أى ما يتكلم
 بالباطل ، والمراد بشديد القوى جبريل عليه السلام ، ذو مرة : أى ذو حصفة عقل
 وقوة عارضة ، قال قطرب : العرب نقول لكل من هو جزل الرأى حصيف العقل :
 هو ذو مرة . من قولهم أمررت الحبل : أى أحكمت فتاه ، فاستوى : أى فاستقام
 على صورته التى خلقه الله عبيها عند حراء فى مبادئ النبوة ، وهو بالأفق الأعلى :
 أى بالجهة العليا من السماء المقابلة للنظر ، ثم دنا : أى ثم قرب ، فتدلى : أى فنزل

من قولهم تدلت الثمرة ، ومنه الدوالى وهى الثمر المعلق كعناقيد العنب ،
والقاب مقدار ما بين المقبض والسّية ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال
بالقوس والرمح وبالذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع ، أو أدنى : أى أقرب من
ذلك . والمراد بالقواد قواد محمد صلى الله عليه وسلم ، ما رأى أى ما رآه ببصره ،
أفتأرأه على ما يرى : أى أفتجدلونه على ما يراه معاينة ، نزلة أخرى : أى مرة أخرى .
سدرة المنتهى : هى شجرة نبت قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش . حنة
الماوى : أى الجنة التى بناهى إليها المبقون يوم القيامة ، يغشى . يغطى ، ما زاغ البصر :
أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومسكن منها وما مال يميناً ولا شمالاً ،
وما طغى : أى ما جاوز ما أمر به ، آيات ربه الكبرى : أى عجائبه المملكية
والملكوتية فى ليلة المعراج .

المعنى الجملى

أقسم ربه بخلق من مخلوقاته العظيمة التى لا يعلم حقيقةتها إلا هو ، وهى نجوم
السماء التى تهدى السارى فى الغلوات ، وترشده إلى البعيد من المسافات - إن نحدأ
صاحبكم نبى حقاً وما ضلّ عن طريق الرشاد ولا اتبع الباطل ، ولا يتكلم إلا بروحى
يوحيه الله إليه ويعلمه إياه جبريل شديد القوى ، ولقد رآه مرتين على صورته التى
خلقه الله عليها بأجنحته وأوصافه المملكية : مرة بغار حراء فى بدء النبوة ، وأخرى
ليلة المعراج حين عرج به إلى السماء ورأى من عجائب صنع الله ما رأى مما استطاع
أن يخبركم به وما لم يستطع ذلك ، فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به وتقولون طورا :
إنه مجنون ، وطورا آخر إنه كاهن . وطورا ثالثا إنه شاعر ، وما كل هذا بالذى
ينطبق على أوصافه وهو صاحبكم وأنتم أعلم بحاله ، فحق عليكم أن تسمعوا قوله ، وأن
تطيعوا أمره فتفوزوا برضوان من ربه .

الإيضاح

(والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى) أى قسما بمخلوقى العظيمة وهى النجوم التى تسير فى مداراتها ولا تعدو أفلاكها ، والتى تهتدون بها فى القيافى والقفار ، فى حلكم وتراحلكم ، فى سفركم وحضركم ، وفى البحار ، ولها لديكم منزلة عظمى فى حياتكم المعيشية - إن محمدا نبي حقا وما ساد عن سبيل الحق ولا سلك سبيل الباطل

وقد خاطب سبحانه بهذا القسم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عندهم فى تعيين امواسم والفصول ، ليستعدوا للنجمة ، ويرتادوا الكلاً بعد سقوط المطر ، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه ، ويتيامنوا ببعضها ويتشاءموا ببعض آخر .

إلى أن القسم بها ينهنا إلى أن هناك عوالم وأجراما علوية يجب علينا أن نعرف أمرها ، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها وبديع صنعها .

ولقد أثبت العلم حديثا ما يدعو إلى العجب من أحوال هذه الأجرام ، وسرعة سيرها ، وكبير حجمها ، فقد علم أن سير نور الكوكب ٣٠٠ ألف كيلو فى الثانية ، ومثله سير الأمواج اللاسلكية ، وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله فى نحو مائة مليون سنة ، فنسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة .

والنظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من عالم المجرة ، والمجرة فيها مجوم تبلغ نحو ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شمس كشمسنا أو أكبر أو أصغر . ويقدر عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وعمر المياه عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان بنحو ٣٠٠ ألف سنة .

وإن شمسنا التي تزيد على أرضنا ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة هي كوكب له توابع وسيارات ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكون مجرتنا ، وهذه المجرة لها نظائر ، فسبحان الخلاق العليم الذي لا يعلم جنوده إلا هو .

والخلاصة - إن الرسول صلى الله عليه وسلم راشد مرشد تابع للحق ليس بضال ولا هو يسلك الطريق بغير علم ، ولا هو غاوي يعدل عن الحق قصدا إلى غيره ، وبهذا نزه الله رسوله وشرعه عن مشايعة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق ويعلمون بخلافه ، فهو في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد .

ثم بين السبب في عدم ضلاله وغوايته فقال :
(وما ينطق عن الهوى) أى كيف يضل ويفوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من كان كذلك ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .
ثم أكد هذا بقوله :

(إن هو إلا وحي يوحى) أى إنما يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملا موفورا بلا زيادة ولا نقصان .

روى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قریش فقالوا : إنك تكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا أقول إلا حقا » قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله . قال : « إني لا أقول إلا حقا » . ويرى بعض المفسرين أن قوله : ما ضل صاحبكم - رد لقولهم : إنه مجنون ،

وقوله: وما غوى -- ردّ لقولهم إنه شاعر: أى ليس بينه وبين الغواية تعلق وارتباط ،
وقوله: والشعراء يتبعهم الغاويون ، وقوله: وما ينطق عن الهوى -- ردّ لقولهم: هو كاهن
وقوله: إن هو إلا وحي يوحى تأكيداً لنقده ، أى فلا هو بقول كاهن
ولاً هو بقول شاعر .

(علمه شديد القوى) أى علم صاحبكم جبريل عليه السلام وهو شديد القوى
العالمية والعملية ، فيعلم ويعمل ، ولا شك أن مدح العلم مدح للتعليم .
وفي هذا رد عليهم فى قولهم : إن هو إلا أساطير الأولين ، سمعها وقت سفره
إلى الشام .

والخلاصة -- إنه لم يعمّه أحد من الناس ، بل علمه شديد القوى ، والإنسان خلق
ضعيفاً لم يؤت من العلم إلا قليلاً -- إلى أنه موثوق بقوله ، لأن قوة الإدراك شرط
الموثوق بقول القائل ، وكذلك هو موثوق بحفظه وأمانته ، فلا ينسى ولا يحرف .
(ذو مرة) أى ذو حصافة فى العقل ، فالوصف الأول إشارة إلى قوة الفعل ،
وهذا وصف بقوة النظر وظهور الآثار البديعة منه .

والخلاصة - إنه يجمع بين القوى النظرية والقوى الجسمية كما روى أنه اقتنع
قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الترى وحملها على جناحيه ورفعها إلى السماء
ثم قلبها ، وصاح بشمود فأصبحوا جاثمين .
وإننا لنؤمن بهذا على أنه من عالم الغيب ونكتفى بما جاء فى كتابه تعالى
ولا نزيد عليه .

وهن علماء الأرواح فى أوربا الآن أصبحوا يؤمنون بقوى عالم الروح وبما لها من
حوارق العادات بالنظر إلى علمنا . قال أوليفر لودج : إنى أصبحت موقن بأننا محوطين
بعالم نحن بالنسبة إليه كالتمل بالنسبة لنا ، وهم يساعدوننا ويحافظون علينا ، ثم قال :
وقفت على هذا بطريق علمى (يريد تحفيز الأرواح) ثم قال : فإذا ما قال
الفنيسون إنهم رأوا الملائكة أو أنهم رأوا الله ، فكل ذلك حق لأمرية فيه اه .

هذا ولا شك من عجائب القرآن ، فإن ما جاء فيه مما يتعلق بعالم الأرواح أصبح علوما تدرس وتذاع بين الناس باعتبارها علوما روحية وكشفا حديثا ، صدق ربنا « سَرَّيْهِمْ بَرْتِنًا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .
فانموى الجسمية والعقلية للعالم الروحي ظهرت بطريق استحضار الأرواح وننمى المغناطيسى ، إذ فيه انحلال النفس عن البدن انحلالا جزئيا أو كليا وهي مربوطه بها ولها اتصال بالعوالم الروحية .

(فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . فأنوحى إلى عبده ما أوحى) أى فاستقام جبريل على صورته التى خلقه الله عينا حين أحب رسوله صلى الله عليه وسلم أن يراه كذلك . فظهر له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس ، فلأله ثم أخذ يدنو من رسوله الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول حتى كان منه مقدار قوسين أو أقرب على تقديركم وعلى مقدار فهمكم . فأنوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحىه إليه من شئون الدين . ولا غرو فإن ظهور الأرواح فى صورة مرئية أصبح الآن معروف ، وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب وأصبح فى طوقهم أن يظهروا الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخطبهم حين التنويم المغناطيسى . وإذا صح ذلك للعامة فليكن ذلك للقدسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم ، ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلى والمتجلى عليه وظهوره فى صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته ، وقوله : فأنوحى إلى عبده ما أوحى ، يرجع إلى قوته العالمية .

ولما كان الإنسان كثيرا ما يظن أنه قد تخيل ما رآه وبكذب قلبه ما ظهر له ، حتى قال علماء الأرواح : إنهم لما خاطبوا الأرواح قانت لهم : إنكم كثيرا ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبون لها إلى خداع الحواس - أعقب سبحانه هذا بما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه أن هذا تخيل ولا أنه وهم فقال :

(ما كذب القواد ما رأى) أى ما كذب فؤاده ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام : أى إن فؤاده صلى الله عليه وسلم ما قال لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

والخلاصة — : لما قال : إن هو إلا وحى يوحى أكد هذا المعنى وفصله بقوله : علمه شديد القوى ، ليبين أنه ليس من الشعر ولا من الكهانة فى شيء ، ولما قال : فاستوى وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة رحمة الكلى لا يعنى وصفه ، إذ قد عرفه بشكله الحقيقى من قبل ، فلا يشتبه عليه ، وقوله : ثم دنا فتدلى تقيم الحديث نزوله عليه السلام وإتيانه بالمنزّل ، وقوله : ما كذب القواد ما رأى ، بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك فى أنه جبريل ولو تصور بغير تلك الصورة .

(أفتمارونه على ما يرى ؟) أى أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

(ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) أى ولقد رأى النبىُّ صلى الله عليه وسلم جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها عند شجرة النبق التى ينتهى إليها علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله قاله ابن عباس .

وقد يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل أى سدرة الله التى إليه المنتهى كما قال سبحانه « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » وعند هذه السدرة الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة قاله الحسن البصرى .

وعلمنا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها الله ، ولا نعين مكانها ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم ، إلا إذا ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ما يبين ذلك ويثبت لدينا بالتواتر ، لأن ذلك من علم الغيب الذى لم يؤذن لنا بعلمه .

روى أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم أنها فى السماء السابعة ، نبتها كقِلَالِ هَجَرَ ، وأوراقها مثل آذان الغيلة ، يسير الراكب فى ظلها سبعين خريفا لا يقطعها .

والمشاهد فى الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء ، ولكن لا عجب فالله يخلقه فى أى مكان شاء ، كما أخبر عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم .

وقُصِّرَ ما سلف — إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته الحقيقية مرتين : مرة وهو فى غار حراء فى بدء النبوة ، والثانية فى ليلة المعراج ولم يكن ذلك فى الأرض بل كان عند شجرة نبوق عن يمين العرش وهى فى منتهى الجنة : هى آخرها ، وعلم الملائكة ينتهى إليها .

وقد تقدم أن الصحيح أن الصعود إلى الملأ الأعلى كان روحيا لا جسمانيا كما روى عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم .

(إذ يغشى السدرة ما يغشى) أى رآه حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الإشراق والحسن ، ومن الملائكة ؛ وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم فعلىنا أن نكتفى بهذا الإيهام ولا نزيده إيضاحاً بلا دليل قاطع ولا حجة بيّنة ، وثو علم الله الخير لنا فى البيان لفعل .

(ما زاغ البصر وما طغى) أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكِّنَ منها ، وما جاوزها إلى رؤية ما لم يؤمر برؤيته .

والخلاصة — إنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى .

(لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى ولقد رأى آيات الكبرى من آيات ربه ومعجائبه الملكوتية .

روى البخارى وابن جرير وابن المنذر فى جماعة آخرين عن ابن مسعود أنه

قال في الآية : رأيت ربنا أخضر من الجنة قد سد الأفق ، وعن ابن زيد أنه رأى جبريل بالصورة التي هو بها .

وعليها ألا تحصر ما رآه في شيء بعينه بعد أن أبهمه القرآن ، إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يحل عنه الحصر والاستقصاء .

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ
الَّذِكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ
مَا تَمَنَّى (٢٤) فَيُلْهِهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ
لَا تُدْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ فَيَرْضَى (٢٦)

شرح المفردات

اللات والعزى ومناة : أصنام كانت تعبدوها العرب في جاهليتها ، فاللات كانت
تقيف . وأصل ذلك أن رجلاً كان يلبث السويق الحاج . فله مات عكفوا على قبره
يعبدونه ثم صنعوا له صورة وعبدوها ، والعزى : شجرة بغطفان كانوا يعبدونها ،
وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإسلام خالد بن الوليد ليقطعها . فجعل يضربها
بفأسه ويقول :

يَا عَزَّى كُفْرَانُكَ لَا سَبِيحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وكانت دماء النساء تسمى عندها :
أى تراق ، والأخرى : أى المتأخرة الوضعية القدر كما نبأ في قوله : « وَقَالَتِ الْآخِرَةُ لَهُمْ

«أَوَلَا هُمْ» أى وفالت وضعاؤهم لأشرافهم ورؤسائهم ، وقد جاء لفظ (الأخرى) بهذا المعنى بين المصر بين فيقول : هو الآخر وهى الأخرى ، يريدون الضعة وتأخر القدر والشرف ، ضيزى : من ضرته حقه (بالضم والكسر) أى نقصته ، والمراد أنها قسمة جائزة غير عادلة قال امرؤ القيس :

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

المعنى الجملى

بعد أن بين ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم من العجائب ليلة المعراج - قال لمشركين ماذا رأيتم فى هذه الأصنام ؟ وكيف تحضرون أنفسكم فى العالم المادى وأصنامهم ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لا ترق إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء ، ولا سبيل أن هذه الأصنام لا تشفع لهم عند ربهم ولا تجديهم نفعاً .

الإيضاح

(أفرايت اللات والعزى . ومناة الثاثة الأخرى ؟) أى أبعد أن سمعتم ما سمعتم من آثار كمال الله عز وجل وعظمته فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته ، وأحكام قدرته ونفاذ أمره ، وأن الملائكة على رفعة مقامهم وعلو قدرهم ياتون إلى السدرة ويقفون عندها - يجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما عظم من عظمته .

فى هذا تقرير شديد ، وتوبيخ عظيم ، وتأنيب لا إلى غاية ، وإن عاقلاً لا ينبغي أن يخطر بباله مثل هذا ، ويمتنع رآيه إلى هذا الحد .

روى أن أب سفيان قال يوم أحد : لنا العزى ولا عزى نكس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله مولانا ولا مدلى نكس .

وبعد أن أنبهم على سخف عقولهم ، وسفاهة أحلامهم ، بعبادتهم الأصنام التي كانوا يزعمون أنها هيأكل للملائكة ، والملائكة بنات الله - ونجهم على نسبة البنات إليه سبحانه وهم لا يرضونها لأنفسهم فقال :

(ألكم الذكر وله الأنثى ؟) أى أنجملون له ولدا وتجملون هذا الولد أنثى ؟ وتختارون لأنفسكم الذكران ، على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون ، والله كامل العظمة ، فكيف تنسبون إليه الناقص ، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل .

(تلك إذا قسمة ضيزى) أى تلك قسمة جائرة غير مستوية ، ناقصة غير تامة لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها . ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء فى عبادة الأصنام وتسميتها آلهة فقال :

(إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أى إن هذه الأصنام التي تسمونها آلهة - هي أسماء فحسب وليس لها مسميات هي آلهة البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلّد فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء .

ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير ، كما تقول : ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر .

ونحو الآية قوله تعالى « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِى إِلَّا أَسْمَاءُ » الآية .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بأبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين .

والخلاصة — إنكم تعبدون هذه الأصنام توهما منكم أن ماعليه آباؤكم حق ،
وإشباعا لشهوات أنفسكم .

ثم بين أنه ما كان ينبغي لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم
وعظيم غفقتهم فقال :

(ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أى هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم وينقادون
إلى آرائهم ، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير ، والحجة الواضحة ، وقد كان
ينبغي أن يكون لهم فى ذلك مزدجر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ
مُسْتَنْقَرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

وبعد أن بين أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل ، بل لا يستند
إلا إلى التشهى والهوى وانباع اضن — ذكر أن هذا لا يجديهم نفعاً ، فهى لا تشفع
لهم عند الله ، ولا يظفرون منها مجدوى فقال :

(أم للإنسان ما تمنى ؟ فله الآخرة والأولى) أى ما تتمنونه من شفاعاة الآلهة لكم
يوم القيامة ان يكون ، ولن تجدكم فتيلاً ولا قطميراً ، فإن كل ما فى الدنيا والآخرة
فهو ملك له تعالى ولا دخل لهذه الأصنام فى شىء منه .

وهذا تيميس لهم من أن ينالوا خيراً من عبادتها والتقرب إليها ولا تكون وسيلة
لهم عند ربهم .

ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر فقال :

(وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن
يشاء ويرضى) أى كثير من الملائكة لا تغيد شفاعتهم شيئاً ولا تنفع إلا إذا أذن لهم
ربهم بها لمن يشاء ممن أخلصوا له ، وأخبتوا له فى القول والفعل فرضى عنهم ، وإذا
كان هذا حال الملائكة وهم عالم روى لهم القرب عند ربهم والزلفى لديه ، فما بالكم
بأصنام أرضية ميتة لا روح فيها ولا حياة ، فهى بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس .

وحلاصة ذلك — إنه لا مطمع لكم في شفاعة هذه الأصنام ، ولا تجديدكم نفعاً في هذا اليوم .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى (٢٧)
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن عاب عليهم عبادتهم للأصنام والأوثان ، وادعاهم أن لله ولداً من
الملائكة ، ورد عليهم بأن هذه الأصنام التى جعلوها آلهة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً
فما هى إلا أسماء ليس لها مسميات هى آلهة كما تدعون ، فلا هى تشفع لهم ولا تجديهم
فتيلاً ولا قبطيراً ؛ فإن الملائكة الكرام لا يشفعون عند ربهم إلا إذا أذن لهم ورضى
عمن يشفعون له . فأجدر بمثل هؤلاء ألا يستطيعوا شفاعة عنده .

وهنا عاب عليهم همة أخرى ، وهى تسميتهم الملائكة بنات الله ، وأبان أن
هذه مقالة شنعاء لا تصدر إلا عن لا يؤمن بالآخرة والحساب والعقاب ، فمن أين أتاهم
أن لله أولاداً هن ملائكته ؟ والولد إنما يطلب المساعدة وقت الحاجة ، ولحسن
الأحدوثة ، ولحفظ الصيت ، والله غنى عن كل ذلك ، ونوصح ما يقولون . فلم اختاروا
له البنات دون البنين ؟ أفلا يساوونه بأنفسهم ويجعلون له ولداً من الذكور لامن
الإناث ؟ فما هذا منهم إلا أباطيل لا تنفى عن الحق شيئاً ، وعليك أيها الرسول أن

تعرض عن هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا جمع حطام الدنيا ، والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، وما تخفى صدورهم . وسيحاسبهم على التقير والقطير ، ويجازيهم على ما يقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

الإيضاح

(إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأثى) أى إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من أحوال الدار الآخرة على الوجه الذى بيته الرسل ، يضمنون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء وهى قولهم : الملائكة بنات الله . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وإنما جعلها مقالة من لا يؤمن ، للإشارة إلى أنها بلغت من الفظاعة حدا لا يمكن معه أن تصدر من موقن بالجزء والحساب ، فقد اشتملت على جرمتين أولاهما سبة نوليد إلى الله ، ثانيتهما أن النوليد أنثى تفضيلا لأنفسهم على بارئهم وموجدهم من العدم .

(وما لهم به من علم) أى ليس لهم بذلك برهان ولا أتى لهم به وحى حتى يقولوا ما قالوا .

ثم أكد نفي علمهم الحق بذلك فقال :

(إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) أى إن معرفة الشيء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين لا عن ظن وتوهم ، وأنتم لا تتبعون فيما تقولون فى هذه التسمية إلا الظن والتوهم . وليس هذا من سبيل العلم فى شيء ، وقد جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الذين آمنوا ، فإن الظن أكذب الحديث » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » .

والخلاصة — إن مثل هذا الاعتقاد يجب أن يكون عن دليل عقلي والعقل لا يركن إليه في مثل هذا ، أو عن وحى ولم يصل إليهم منه شيء يخبرهم بما يقولون .
ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم فقال :

(فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ولم يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة وقصص الأولين المذكورة بأمور الآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، واقتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجَدَّوا فى بلوغ أسنى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحرث والوليد بن المغيرة وأضرابهما

والخلاصة — لاتبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وإنهمك فى أمور الدنيا ، وجعلها منتهى همته ، وأقصى أمنيته ، وقصارى سعيه ، فلا سبيل إلى إيمان مثله ، فلا تبخع نفسك على مثله أسفا وحزنا كما قال : « لَعَنَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » .

ثم أكد مامضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله :
(ذلك مبلغهم من العلم) أى إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا بالذات ، ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُعَنَوْنَ بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلًا من دبر .

روى أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا دار من لادار له ، ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له » وفى الدعاء المأثور « اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

ثم ذكر السبب فى الأمر بالإعراض عنهم فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمسائه ، مفكرا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على السنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى ينجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ، فاحتذى حذوها ، وسار على إثرها — وبمن حاد عن طريق النجاة وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شىء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه نجاز كلاً بما كسب واكتسب ، وسيجزىه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، على حسب ما أحاط به واسع علمه ، وعلى مقدار فضله على من أخبت إليه كما قال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » ونكاله بمن دسّ نفسه واجترح السيئات ، مصداقاً لقوله : « نَبِيُّ عِبَادِي أَيْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .
والخلاصة — إن هؤلاء قوم لا تجدى فيهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون .

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّامَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)

شرح المفردات

بما عدا : أى بالعقاب على عملهم ، بالحسنى : أى بالمتربة الحسنى وهى الجنة ، كبائر الإثم : ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر ، والفواحش : واحدها فاحشة وهى ما عظم قبحه من الكبائر ، واللمم : ما صغر من الذنوب كالنظرة والقبلة . وهو فى اللغة اسم لما قل قدره ومنه لمة الشعر ، وقيل اللمم : الذنوب من الشئ دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أى فاربت منه ، وعاديه فالمراد به الهم بالذنوب وحديث الناس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيب : هو ما خطر على القلب ، والأجنة : واحدها جنين ، وهو الولد مادام فى البطن .

المعنى الجملى

بعد أن أمره سبحانه بالإعراض عن المشركين مع شدة ميله إلى إيمانهم ، وتطلعه إلى هدايتهم ، وتعلقه بصلاحهم وإرشادهم وهم قومه وعشيرته ، وأبان له أن هؤلاء قوم انصرفوا عن النظر إلى الحق ، ووجهوا همهم إلى زخرف الدنيا ، وأن منتهى علمهم التصرف فى شئونها ، فهى قبلتهم التى إليها يحجون ، ومطمح أنظارهم الذى إليه يرون ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وأنهم قوم ضالون لا يصل الحق إلى شفاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم .

ذكر هنا أنه تعالى لا يهملهم ، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض ، فلا يترك عباده هملا بل يحازيهم بعذله ، فيثيب الحسن بالجنة ، ويعاقب السيئ على سوء صنيعه بما هو أهله ، ثم أردف ذلك بذكر وصف الحسنين وأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، ولا يقع منهم إلا اللوم من صغائر الذنوب الفينة بعد الفينة ؛ ويتوبون منه ولا يصرون عليه ، ثم حذر عباده بأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن

يموتوا ، فيعلم المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذاً فى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات .

الإيضاح

أولله ما فى السموات وما فى الأرض (أى إن ما فى السموات وما فى الأرض تحت قبضته وسلطانه ، وله التصرف فيه خلق وملكاً وتديراً ، فهو العليم به لا تخفى عليه خافية من أمره ، فلا تظنوا أنه يهمل أمركم ، كلا ، فإنه مجاز كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وهذا ما عنده بقوله سبحانه :

(ليعجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى فهو يجازى على حسب علمه المحيط بكل شئ . — المحسن بالإحسان ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويتمتع بهعيم لا يخطر على قلب بشر ، والمسيء بصنيع ما أساء . وبما دسّ به نفسه من ضروب الشرك والمعاصى ، وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام ، وقد أضله الله على علم وختم على سمعه وقببه وجعل على بصره غشاوة .

ثم ذكر أوصاف المحسنين فقال :

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) أى إن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى كالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير حق والزنا ، ولا تقع منهم إلا صفائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرط منهم .

ونحو الآية قوله : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » .

والمشهور أن الكبائر سبع وروى ذلك عن عبيد الله بن كرم الله وجهه واستدلوا به بما روى فى الصحيحين « اجتنبوا السبع المميتات : الإشراف بالله تعالى والسحر وقتل

النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً قال له : الكبائر سبع ، فقال هي إلى سبعائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار .

وقيل الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حد في الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم ، أو ترتب عليه مفسد كبيرة ، ولو كان في نظر الناس صغيراً ، فمن أمسك إنساناً ليقتله ظالم ، أو دل العدو على عورات البلاد فقد فعل أمراً عظيماً ، فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قبيلاً مع أنه من الكبائر .

ثم ذكر ما يدفع اليأس عن صاحب الكبيرة في غفران ذنبه فقال : (إن ربك واسع المغفرة) فيغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفر ما يشاء من الذنوب بعد التوبة الصادقة ، والندم على ما فرط من مرتكبها إذا أختب إلى ربه ، وتجافى عن ذنبه .

ونحوه قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

ثم أكد ما قبله وقرره بقوله :

(هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) أي هو بصير بأحوالكم ، عليم بأقوالكم وأفعالكم حين ابتداء خلقكم من التراب ، وحين صوركم في الأرحام على أطوار مختلفة وصور شتى .

(فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) أي فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على

أنفسكم بالطهارة من المعاصي . أو بركاء العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصي ومن ولغ فيها ودنس نفسه باجتراحها .
والنهي عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بها الرياء أو الإعجاب بالعمل ، وإلا فلا بأس بها ولا تكون منهياً عنها ، ومن ثم قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » .

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت (بَرَّة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم ، سموها زينب » .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُفْحِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَنُوحًا قَمًا

أَبْقَى (٥١) وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢)
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) .

شرح المفردات

تولى : أى أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه ، وأ كدى : أى قطع العطاء من قولهم : حفر فاك كدى . أى بلغ إلى كدية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل ، ينبأ : أى يخبر ، وصحف موسى هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع ، ووفى : أى أتم ما أمر به ، أن لا تزر وازرة وزر أخرى : أى لا تحمل نفس حمل نفس أخرى يرمى : أى يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء ، يحزاه : أى يحزى سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله ، المنتهى : أى المعاد يوم القياسة والجزاء حين الحشر ، تمنى : أى تدفع فى الرحم من قولهم : أمنى الرجل ومنى : أى صب المنى ، والنشأة الأخرى هى إنبادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث ، أغنى وأقنى : أى أغنى من شاء وأقنى من شاء ، والشعرى : هى الشعرى العبور وهى ذاك النجم الوضاء الذى يقال له مِرْزَمُ الجوزاء وقد عبدته طائفة من العرب ، وعاد الأولى : هم قوم هود وهم ولد عاد بن أرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى والمؤتفكة هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك ، لأنها انتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم ، ومنه الإيالك لأنه قاب الحق ، أهوى : أى أسقطها فى الأرض ، غشاه : أى غطاه .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه علمه وقدرته ، وأن الجزاء واقع على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذى يجنب تباثر الإنهم ، وهذا لا يعرف إلا بالوحى من الله تعالى . ذكر هنا أن من العجب العاجب بعد هذا أن يسمع سامع ويرجو عاقل أن غيره

بقوم مقامه فى تحمل وزره ويعطيه جُعلاً لذلك . لكنه ما أعطاه إلا قليلاً ووقف عن إعطاء ، ثم ونخه على ذلك ، بأن علم هذا لا يكون إلا بوحى ، فهل علم منه حجة ما اعتقد ؟ كلا جميع الشرائع المعروفة لكم كشريعة موسى وإبراهيم على غير هذا ، وأنه لا تزر وزره وزر أخرى . وأن ليس الإنسان إلا ماسعى ، فمن أين وصل له أن ذلك مجزئ له .

قال مجاهد وابن زيد : إن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ، وعظه فلان فلبه للإسلام فقطع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إنه عابه رجل من المشركين وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك ، وأثبت عليه . وأنا أتحمّل عنك كل شيء تخافه فى الآخرة نكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال ، فوافقه الوائد على ذلك ، ورجع عما هم به من الإسلام ، وضل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشج .

وقد ذكر سبحانه ما تضمنته صحف إبراهيم وموسى :

- (١) ألا يؤخذ امرؤ بذنب غيره .
- (٢) ألا يشاب امرؤ إلا بعمله .
- (٣) إن التعامل يرى عمله فى ميزانه . خيراً كان أو شراً .
- (٤) إنه يجازى عليه الجزاء الأوفى فتضاعف له حسناته إلى سبعمائة ضعف ، ويجازى بمثل سيئاته .
- (٥) إن الخلائق كلهم راجعون يوم المعاد إلى ربهم ، ومجزون بأعمالهم .
- (٦) إنه تعالى خلق الضحك والبكاء والفرح والحزن .
- (٧) إنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من نطفة تصب فى الأرحام .
- (٨) إنه تعالى خلق الموت والحياة .
- (٩) إنه هو الذى أعطى الغنى والفقر . وكلاهما بيده وتحت قبضته .

- (١٠) إنه هورب الشعري ، وكانت خزاعة تعبدها .
 (١١) إنه أهلك عادا الأولى ، وقد كانوا أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح .
 (١٢) إنه أهلك ثمود فما أبقاهم ، بل أخذهم بذنوبهم .
 (١٣) إنه أهلك قوم نوح من قبل عاد و ثمود وقد كانوا أظلم من الفريقين .
 (١٤) إنه أهلك المؤمنين وهي قري قوم لوط وقد انقلبت بأهلها ، وغطاها بحجارة من سجيل .

الإيضاح

(أفرايت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى ؟)
 أى أعلمت شأن هذا الكافر ؟ وهل بلغت شأنه العجيب ، فقد أشرف على الإيمان واتباع هدى الرسول ، فوسوس إليه شيطان من شياطين الإنس بالآ يقبل نصح الناصح ويرجع إلى دين آباءه ويتحمل ما عليه من وزر إذا هو أعطاه قليلا من المال ، فقبل ذلك منه ، لكنه ما أعطاه إلا قليلا حتى امتنع من إعطائه شيئا بعد ذلك ، أفعنده علم بأمور الغيب ، فهو بعد أن صاحبه يتحمل عنه ما يخاف من أوزاره يوم القيامة ؟.

وقصارى ذلك — أخبرنى بأمر هذا الكافر وحاله العجيبة ، إذ قبل أن سواه يحمل أوزاره إذا أدى أجرا معلوما ، أنزل عليه وحى فرأى أن ما صنعه حق ؟

ثم أكد هذا الإنكار فذكر أن الشرائع التى يعرفونها على غير هذا يقال :
 (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى) أى ألم يخبر بما نصت عليه التوراة وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمر به ، وأدى رسالته على الوجه المرضي ، يدل على ذلك قوله : « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .

قال ابن عباس : وفى بسهام الإسلام كلها وهى ثلاثون سهمًا لم يوفها أحد غيره ، منها عشرة فى براءة « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآيات ، وعشرة فى الأحزاب « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » الآيات ، وستة فى « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... » الآيات ، وأربعة فى سأل سائل « وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » الآيات .

وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله ما لم يحتمل غيره ، وفى قصة الذبح مافيه الغناء فى ذلك .

وإنما ذكر ما جاء فى شريعتى هذين النبیین فحسب ، لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون مافى التوراة . وصحفها قريبة العهد منهم .

ثم فصل ما جاء فى هاتين الشريعتين فقال :

(١) (أن لاتزر وزارة وزر أخرى) أى لاتحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، فكل نفس اكتسبت إثماً بكفر أو معصية فعليها وزرها لا يحملها عنها أحد كما قال : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيعًا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » .

(٢) (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) أى كما لا يحمل عليه وزر غيره لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط مالك والشافعى ومن تبعهما أن القراءة لا يصح إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، وهكذا جميع العبادات البدنية كالصلاة والحج والتلاوة ، ومن ثم لم يندب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حشبه عليها ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، أما الصدقة فإنها تقبل ؛ وما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ،

وصدقة جارية من بعده ، وعلم ينتفع به « فهي في الحقيقة من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولد الرجل من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه على أعمال البر هي من آثار عمله ، وقد قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » الآية ، والعلم الذى نشره فى الناس فافتقدوا به واتبعوه — هو من سعيه ، فقد ثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه من غير أن ينقص أجرهم شيئا » .

ومذهب أحمد بن حنبل وجمعة من العلماء أن ثواب القراءة يصل إلى الموتى إن لم تكن القراءة بأجر ، أما إذا كانت به كما يفعله الناس اليوم من إعطاء الأجر للحفاظ للقراءة على المقابر وغيرها — فلا يصل إلى الميت ثوابها ، إذ لا ثواب لها حتى يصل إليهم ، لحمة أخذ الأجر على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه .

(٣) (وأن سعيه سوف يرى) أى إن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل الحشر ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل الحسنيين ، وتوبيخ للمسيئين . ونحو هذا قوله : « وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(٤) (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره ، فيضاعف الله له الحسنه ويضاعفها سبعمئة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها أو يعفو عنها كما قال : « تَبَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . (٥) (وأن إلى ربك المنتهى) أى وأن مرجع الأمور يوم الميعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على التقير والتظهير . ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار .

وفى هذا تهديد بليغ لمسىء ، وحث شديد لمحسن ، وتسلية لقلبه صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : لانحنز إليها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

ونحو الآية قوله : « فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » إلى أن قال فى آخر السورة « وَاللَّيْلُ تُرْجَعُونَ » وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن .
 (٦) (وأنه هو أنحك وأبكى) أى وأنه خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهماء والمراد أنه خلق مايسر وما يحزن من الأعمال الصالحة ، والأعمال الطالحة .
 (٧) (وأنه هو أمات وأحيا) أى وأنه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » فهو يميت من يشاء موته ، ويحيى من يشاء حياته ، ينفخ الروح فى النطفة الميتة فيجعلها حية .

(٨) (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى) أى وأنه خلق الذكر والأنثى من الإنسان وغيره من الحيوان من المني الذى يدفق فى الأرحام .
 (٩) (وأن عليه النشأة الأخرى) أى وأن عليه الإحياء بعد الإماتة ، ليجازى كل من أحسن ولمس على ما عمل .

(١٠) (وأنه هو أغنى وأقنى) أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء على حسب ما يرى من استعداد كل منهما ومقدرته على كسب المال بحسب السنن المعروفة فى هذه الحياة .

وفى هذا تنبيه إلى كمال القدرة ، فإن النطفة جسم متناسب الأجزاء فى الظاهر ، ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة ، وطبعا متباينة من ذكر وأنثى ، ومن ثم لم يدع أحد خلق ذلك ، كما لم يدع خلق السموات والأرض كما قال : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

ونحو الآية قوله : « أَلَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَنًى ؟ ثُمَّ كَانَ عَاقَةَ نَفَاقٍ فَسَوًى . فَعَلَّ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

(١١) (وأنه هو رب الشعرى) أى وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذى يطلع خلف الجوزاء فى شدة الحر .

وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية ، وفيها ما هو أكبر منها جرما وأكثر ضوئا ، لأنها عبدت من دون الله في الجاهلية ، فقد عبدتها حمير وخزاعة ، وأول من سن عبادتها أبو كبشة وكان من أشرف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة تشبها له به ، لخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، وكان من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، ومن ذلك قول أبي سفيان عند دخوله على هرقل : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة .

ومن العرب من كانوا يعظمونها ، ويعتقدون أن لها تأثيرا في العالم ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها .

وهي شعريان إحداهما شامية ، وثانيتهما يمانية وهي المرادة هنا وهي التي كانت تعبد من دون الله .

(١٢) (وأنه أهلك عاد الأولى) وهم قوم هود عليه السلام ، ويسمون عاد ابن إرم بن سام بن نوح كما قال : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ دَاثِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ؟ » وقد كانوا من أشد الأمم وأقوام وأعتام على الله ورسوله ، فأهلكهم « يَرْيَحُ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هي ثمود ، وقيل عاد الأخرى من ولد عاد الأولى . (١٣) (وثمود فما أبقى) أى وأهلك ثمود فما أبقى عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر .

ونحو الآية قوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(١٤) (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدءوا بالظلم ، و« من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » وأطغى منهما وأكثر تجاوزا للحد ، لأنهم

سمعوا النواغظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ويمشى إليه يحذره منه ويقول يا بني إن أبى مشى بى إلى هذا وأنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه لا يتأثر من دعائه له .

(١٥) (والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى) أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم وجعل عاليها سافلها ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود كما قال : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » وهذا ما عناه سبحانه بقوله : فغشاها ما غشى .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

فَبَأَى آلاءَ رَبِّكَ تَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦)
أَزِفَتْ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَرَأَيْتَ هَذَا
الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

شرح المفردات

الآلاء : النعم واحدها ألى (بالفتح والكسر) وتمارى : تمتري وتشك ، والخطاب للإنسان ، هذا نذير من النذر : أى إن محمداً بعض من أنذر ، أزفت : قربت ، والآزفة : الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أولدونها من الناس كما جاء فى قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » من دون الله : أى من غيره ، كاشفة : أى نفس

تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ، والحديث : القرآن ، سامدون : أى لاهون غافلون من سمد البعير فى سيره إذا رفع رأسه ، فاسجدوا : أى اشكروا على الهداية ، واعبدوا : أى اشتغلوا بالعبادة والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قبلُ ما جاء فى صحف موسى وإبراهيم ، من أن الإحياء والإماتة بيد الله ، وأنه هو الذى يصرفُ أمور العالم خلقاً وتدييراً وملكاً ، فيفقر قوماً ويغنى آخرين ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت رسلها وأنكرت الخالق فأصابها ما أصابها — قفى على هذا بالمتعجب من أمر الإنسان ، وأنه كيف يتشكك فى هذا ، ويجادل فيه منكراله ، وقد جاء النذير به ، فعليكم أن تصدقوه وتؤمنوا به قبل أن يحل بكم عذاب يوم عظيم قد أزف ، ولا يقدر على كشفه أحد إلا هو ، فلا تعجبوا من القرآن منكرين ، ولا تضحكوا منه مستهزئين ، وابكوا حزناً على ما فرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواظبه وحكمه التى فيها سعادتم فى دنياكم وآخرتم ، واسجدوا شكراً للبارئ النسم الذى أوجدها من العدم ، واعبدوه بكرة وعشيا شكراً على آلائه ، ونقلبكم فى نعمائه .

الإيضاح

(فبأى آلاء ربك نتبارى) أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان تمتزى وتشك ؟

ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمُ ؟ » وقوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » وقوله : « فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

والمراد بالنعيم ما عده من قبل ، وجعلت كلها نعمة ، وبعضها نقم ، لما في النقم من الموعظ والعبر للمعتبرين من الأنبياء والمؤمنين .

والخلاصة — إنها كلها دالة على وحدانية ربك وربو بيته ، ففي أيها تشكك على وضوحها للناظرين ، ووجوه دلالتها للمعتبرين ؟

(هذا نذير من النذر الأولى) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم منذر من ربه من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، بسوء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل الذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال كنفاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى ترى عليهم .

ونحو الآية قوله : « إِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير العريان » أى الذى أعجبه شدة ما عين من الشرع أن يلبس شيئا ، وبادر إلى إنذار قومه وجاءهم مسرعا .

(أزفت الآزفة) أى اقتربت الساعة ، ونصب الميزان ، وستجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، فاحذروا أن تكونوا من الهالكين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون . ونحو الآية قوله : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَذِبَةٌ » وفى الحديث « مثلى ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين إصبعيه الوسطى والى تلى الإبهام .

(ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لاتشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجِدُوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

(١) وحدانية الله بقوله : (فبأى آلاء ربك تتماهى ؟) .

(٢) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (هذا نذير) .

(٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : (أُرِزْتُ الْآزِفَةَ) .

ثم أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به وإعراضهم عنه فقال :
 أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ) أى أفينبغى
 لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء
 السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ؟ وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ،
 وَلَا تَكُونُوا كَالْمُؤَقِنِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : « وَيَخْرُثُونَ لِلَّذِينَ لَا يَبْكُونَ
 وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » وكيف تدهون عن استماع عِبرته ، وتغفلون عن مواعظه ،
 وتتهمونها تلقى الالهامى السامى المعرض عما يسمع ، غير المكترث بما يلقى إليه .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا
 الْحَدِيثِ » الآية بكى أصحاب الصفّة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم ، فبكينا ببكائه ، فقال عليه
 الصلاة والسلام : « لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى ، ولا يدخل الجنة
 مصرّاً على معصية ، ولو لم تذنبوا لَجَأَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

ثم بين ما يجب عند سماع القرآن من الإجلال والتعظيم فقال :

(فاسجدوا لله واعبدوا) أى فاخضعوا وأخلصوا له العمل خفاء غير مشركين

به ، فهو الذى أنزله على عبده ورسوله هادياً وبشيراً لكم لعلكم ترحمون ، ودعوا
 ما أتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تغنى عنكم شيئاً ، فلا تدفع عنكم ضرراً ،
 ولا تجديكم نفعاً كما قال أمرا رسوله أن يقول لهم : « مَنْ يَبْدِهِ مَسْكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ
 وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » .

ما تضمنته السورة الكريمة من الأسرار والأحكام

- (١) إنزال الوحي على رسوله .
- (٢) إن النبى علمه إياه هو جبريل شديد القوى .
- (٣) قرب رسوله من ربه .
- (٤) إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الملكية مرتين .
- (٥) تقرع المشركين على عبادتهم الأصنام .
- (٦) توبيخهم على جعل الملائكة ، آباءهم بنات الله .
- (٧) مجازاة كل من الحسن والمسىء بعمله .
- (٨) أوصاف المحسنين .
- (٩) إحاطة علمه تعالى بما فى السموات والأرض .
- (١٠) النهى عن تزكية المرء نفسه .
- (١١) الوصايا التى جاءت فى صحف إبراهيم وموسى .
- (١٢) النعى على المشركين فى إنكارهم الوحدانية والرسالة والبعث والنشور .
- (١٣) التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه ، وغفلتهم عن مواعظه .
- (١٤) أمر المؤمنين بالخضوع لله والإخلاص له فى العمل .

سورة القمر

هى مكية إلا قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ » . سَيُزَمُّ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ « فذنية .
وعدة آيها خمس وخمسون نزلت بعد الطارق .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) مشاكلة آخر السورة السابقة لأول هذه فقد قال هناك : أزفت الآفة ، وقال هنا : اقتربت الساعة .

(٢) حسن التماسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قد فصلت ماجاء فى سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التى كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكمهم الذى أشار إليه فى السابقة بقوله : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَنَمُودًا ثَمَانِي . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى »
فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ (٥) فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِرٍ (٦) خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ يَنْحَرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُطْعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) .

شرح المفردات

اقتربت : أى دنت وقربت ، وانشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين ، آية : أى دليلا على نبوتك ، مستمر : أى مطرد دائم ، أهواءهم : أى مآزينه لهم الشيطان من الوسواس والأوهام ، مستقر : أى منته إلى غاية يستقر عندها لا محالة ، الأنباء أخبار القرون الماضية وما حاق بهم من العذاب جزاء تكذيبهم للرسول ، واحدها نبأ ، بالغة : أى واصلة غاية الإحكام والإيداع ، تنن : أى تفيد وتنفع ، والنذر : واحدهم نذير بمعنى منذر ، فتول عنهم : أى لاتجاهلهم ولا تحاجهم ، نكر : أى أمر تنفكره النفوس إذ لا عهد لها بمثله ، خشعا : واحدهم خاشع : أى ذليل والأجداث : القبور ، مهطعين : أى مسرعين إليه منقادين ، عسر : أى صعب شديد الهول .

المعنى الجملى

يخبر سبحانه باقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها وأن الأجرام العلوية يختل نظامها على نحو ما جاء فى قوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » روى أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا سَفْتٌ يسير ، فقال : والذي نفسى بيده مابقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذَا ، وَأَشَارُ بِإِصْبَعِيهِ السَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى » .

ثم ذكر أن الكافرين كلما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا وكذبوا بها وقالوا إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضا ؛ ثم أخبر أن أمرهم سينتهى بعد حين

وسيبستقر أمرك ، وسينصرك الله عليهم نصرا مؤزرا ، ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جد كافية لهم لو أن لهم عقولا يفكرون بها فيما هم فادمون عليه ، ولكن أنى تغنى الآيات والنذر عن قوم قد أضلهم الله على علم وختم على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ؟ . ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم ، وسيخرجون من قبورهم أذلاء ناكسى الرؤوس مسرعين إلى إجابة الداعى يقول الكافرون منهم هذا يوم شديد حسابه ، عسر عقابه .

الإيضاح

(اقتربت الساعة) أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة ، وقرب انتهاء الدنيا وهذا كقولهم : « أُنَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « اقْتَرَبَ نِشَاسٌ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » .

(وانشق القمر) أى وسينشق القمر وينفصل بعضه من بعض حين يحتل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض ، ونحو هذا قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ » . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » وكثير غيرها من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة .

ويرى جمع من المفسرين أن هذا حدث قد حصل ، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة على الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا » .

وجاء عنه أيضا : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت قریش : هذا سحر ابن أبي كبشة . فقال رجل انتظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس ، فجاء السفار فأخبروهم بذلك ، رواه أبو داود والطيالسي » وفي رواية البيهقي « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه ، فأنزل الله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر » .

والذي يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لاعن انشقاق ماضٍ - أمور : (١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة ، والظاهر تجانس الخبرين وأنهما خبران عن مستقبل لاعن ماضٍ .

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث السكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم ، وبلغ حدا لا يمكن أحدا أن ينكره ، وصار من المحسوسات التي لا تدفع ، ونصار من المعجزات التي لا يسع مسلما ولا غيره إنكارها .

(٣) ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر ، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواه آحادا ، بل كانوا لا يعدون كثرة .

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح فارس فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : اقتربت الساعة وانشق القمر ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة ، فهذا الكلام من حذيفة في معرض قرب مجيء الساعة وتوقع أحداثها ، لافي كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول وإثباتا لنبوته ، لأن ذلك كان في معرض العظة والاعتبار .

وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة وكان ذلك مما يستدعي انتباههم من غفلتهم ، والتفكير في مصيرهم ، والنظر فيما جاءهم به من الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته ، والمؤيدة

لصدقة ، اسكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعي لهم إلى الرشاد ، والهادى لهم إلى سواء السبيل ، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال :

(وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أى وإن ير المرء المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك ، وترشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك ، يعرضوا عنها ويقولوا مكذبين بها منكرين أن يكون ذلك حقا ، ويقولوا تنكذيبا منهم بها : هذا سحر سحرنا به محمد ، وهو يفعل ذلك على مرّ الأيام .
وفى هذا إيحاء إلى ترداف الآيات ، وتتابع المعجزات .

وقال السكسائي والفرء واختاره النحاس : إن المراد بالمستمر الذهاب الزائل عن قرب ، إذ هم قد علاوا أنفسهم ومنوها بالأمانى الفارغة ، وكأنهم قالوا : إن حاله عليه السلام وما ظهر من معجزاته إن هى إلا سحابة صيف عن قريب تقشع ، ولكن أيّهات أيّهات ، فقد غرّتهم الأمانى (وَيَبْئِىَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أى وكذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به أهواؤهم ، لجهنهم وسُخِّف عقولهم .

والخلاصة — إنهم كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا حججه وقالوا : هو كاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات الأفعال ، وساحر يسترهب الناس بسحره ، إلى أشباه هذا من مقالاتهم التى تدل على العناد وعدم قبول الحق .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(وكل أمر مستقر) أى وكل شىء ينتهى إلى غاية تشككه ، فأمرهم سينتهى إلى الخذلان والعذاب الدائم فى الآخرة ، وأمرُك سينتهى إلى النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

وهذه قاعدة عامة تنضوى تحتها حركات الكواكب والأفلاك ونظم العمران وأعمال الأفراد والأمم .

وقصارى ذلك — إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيصل إلى غاية يقين عندها أنه الحق ، وأن ما سواه هو الباطل ، وقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت ، والباطل يزهد بحسب ما وضعه في نظم الخليفة (البقاء الأصلح) .

ثم ذكر أنهم في ضلال بعيد ، فإن ما جاء في القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون ، قال :

(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أى ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك واتبعوا أهواءهم — من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل فأحل الله بهم من العقوبات ما قصه في كتابه — ما يردعهم ويترجمهم عما هم فيه من القباح ، إذ أبادهم في الدنيا وسيعذبهم يوم الدين جزاء وفاقا لما دنسوا به أنفسهم من الشرك بربهم وعصيان رسله ، واجترأهم للسيئات .

ثم بين الذى جاءهم به فقال :

(حكمة بالغة) أى هذه الأنباء غاية الحكمة في الهداية والإرشاد إلى طريق الحق لمن اتبع عقله وعصى هواه .

(فما تنذرن) أى إن النذر لم يبعثوا ليأجئوا الناس إلى قبول الحق ، وإنما أرسلوا مبغين فحسب ؛ فليس عليك ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى ، فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها في نحو قوله « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وتول عنهم بعدئذ .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا » .

ثم أمر رسوله ألا يجادلهم ولا يفاظهم فإن ذلك لا يجدى نفعا فقال :

(فتول عنهم) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين المكذبين ولا تحاجهم ،

فإنهم قد بلغوا حدا لا يقنعون معه بحجة ولا برهان ، فأحرى بك ألا تلتفت إلى نصيحهم وإرشادهم ، فقد عييت بأمرهم ، وبرمت بعنادهم .

(يوم يدعو الداع إلى شيء تكرر) أى واذكر حين ينادى الداعى إلى شيء فظيع تنكره نفوسهم ، إذ لا عهد لها بمثله ، وهو موقف الحساب وما فيه من أهوال . وقد جرت العادة أن من ينصح شخصا لا يؤثر فيه النصيح أن يعرض عنه ويقول لسواه ما فيه نصيح لمعرض عنه ، وهدايته وإرشاده لو أراد .

ثم ذكر حال الكافرين في هذا اليوم فقال :

(خشعا أبصارهم يخرجون من الأحداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون ، كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى - جراد قد انتشر في الآفاق .

وجاء تشبيههم في الآية الأخرى بالفراش في قوله « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » .

وهم يكونون أولا كالفراش حين يموجون فرعين لا يهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لاجهة لها تقصدها ، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب .

(مهطمين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون هذا يوم شديد الهول سيء المقلب .

ونحو الآية قوله : « فَذَلِكَ يَوْمٌ مَّئِيدٌ يَوْمَ عَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » . وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه ولا مشقة .

قصص بعض الأنبياء مع أممهم

(١) قصص قوم نوح

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)
 فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)
 وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
 الْأَوْحِ وَدُسِّرَ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
 آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
 الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) .

شرح المفردات

وازدجر : أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف ، فانتصر : أى فانتقم
 لى منهم ، منهمر : أى كثير كما قال :

أعيناي جودا بالدموع الهوامير على خير بادٍ من مَعَدٍ وحاضر
 فاللقى الماء : أى ماء السماء وماء الأرض ، على أمر : أى على حال ، قد قدر :
 أى قد قدره الله فى الأزل ، ذات ألواح : أى ذات خُشْب عريضة ، دسر : أى مسامر
 واحدها دسار ككتب وكتاب ، بأعيننا : أى برأى منا والمراد بحراستنا وحفظنا ،
 كفر : أى جحد به وهو نوح عليه السلام ، تركناها : أى أبقينا السفينة ، آية :
 أى علامة ودليلا ، مدكر : أى متذكر ومعتبر ، ونذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ،
 يسرنا : أى سهلنا ، للذكر : أى للعتة والاعتبار ، مدكر : أى متعظ بمواعظه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لوتذكروا
 كان به نعمتهم نزل الزواجر شيئا - أردف هذا يذكر قصص من قبلهم من الأمم
 أقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع في الأمم ، بل كثير منهم
 فعلوا فعلهم بل كانوا أشد منهم عتوا واستكبارا ، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من
 البلاء ما لاقيت ، فلا تنس على ما فرط منهم ولا تهتس بما كانوا يفعلون كما جاء
 في قوله سبحانه : «فَلَمَّعْتُ بِالْخِصِّ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» .
 وفي هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسوله ، وأنهم
 إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم ، وينجى نبيه
 والمؤمنين كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نعمه التي أحاطها بأنهم .

الإيضاح

(كذبت قباهم قوم نوح) أى كذب قبل قومك قوم نوح فكانوا أسوة
 لمن بعدهم من المكذبين للرسل .

ثم فصل هذا التكذيب بقوله :

(فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر) أى فكذبوا عبدنا نوحا ونسبوه إلى
 الجنون ، وزجرود وتوعده لئن لم ينته ليكونن من المرجومين .

وأضاف العبد إليه في قوله «عَبْدَنَا» للإشارة إلى أنه لم يعبد سواه ، فهو
 في جميع أفعاله لله : وإلى أنه صادق في دعواه النبوة ، فهو لا ينطق عن الهوى ،
 فتكذيبهم له قبيح غاية القبح ، بالغ نهاية العتو والإنكار .

ثم بين أنه حيل بهم صبرا ، وضاق بهم ذرعا فدعا عليهم فقال :

(فدعاه أنى مغلوب فانتصر) أى فدعا نوح ربه قائلا إن قومى قد غلبونى
 حمدا وعتوا ولا طاقة لى بهم ، فانتصر منهم بعقب من عندك على كفرهم بك .

، فصرى ذلك - انتصر لك وندبتك ، فإني قد غلبت وعجبت عن الانتصار لها .
ثم أخبر سبحانه أنه قد أجاب دعاءه فقال :

(ففلقنا أبواب السماء بماء منهمر) أى فصببنا عليهم ماء ثجاجا من السماء ،
ونقول العرب فى المطر الوابل : جرت ميسر السوء . روى أنهم طلبوا المطر سنين
فأهلكهم الله بما طلبوا .

وفى الآية إيماء إلى أن الله انتصر منهم ، وانتقم بماء لا يجند أنزله .
(وجفرنا الأرض عيوننا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة .
(فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى فالتقى الماء أى ماء السماء وماء الأرض
على أمر قد قدره الله وهو هلاكهم بالطوفان .

والخلاصة - إن الله أرسل ماء السحب مدرارا ، وأخرج من الأرض ماء
ثجاجا ، فالتقى الماءان فأحدثا طوفانا على وجه الأرض ، فأغرق به قوم نوح ،
ونجا نوح بركوب سفينة التى بناها كما أشار إلى ذلك فى هود بالتفصيل وأشار إليه
هنا بقوله :

(وحملناه على ذات ألواح ودسر) أى وألقيناه من الطوفان فحملناه على سفينة
ذات خشب ومسامير .

وجاء فى سورة العنكبوت « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب
السنن التى وضعها فى الخليقة ، وأنه يهمل الظالمين ، ولا يهتمهم كما جاء فى الحديث
« إن ربك لا يهمل ولا يهمل ولا يهمل وتلا قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ
الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ) » .

ثم أشار إلى أنه كان محروما بعناية الله وكلاءته فقال :

(تجرى بأعيننا) أى تجرى محفوظة بحراسنا ، فقد كانت بمراى من
ننح نكأوه، وترعاها ، كما يرعى المرء ما يراه بعينه ، ويقع تحت سمعه وبصره ،

ويقول القائل إذا وصى آخر على أمر وشدد عليه : اجعله نُصْبَ عينيك أى اهتم به ولا تهمله .

ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم ، وكفرهم بربهم فقال :
(جزاء لمن كان كافر) أى فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا ، وجحودهم ببعثنا ، وتكذيبهم برسولنا .

ثم ذكر أنه أتى السفينة عبرة لمن بعدهم على كر الدهور والأعوام فقال :
(ولقد تركناها آية) أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحا ومن معه -
عبرة لمن بعده من الأمم ، ليذبروا ويتعظوا ويرعوا أن يسلكوا مسلكهم وينهبوا
نهبهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيهم مثل ما أصابهم من العقوبة :
وقد روى أن الله حفظها آمادا طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجودى . وقال قتادة
أبقاها الله بباقردى من أرض الجزيرة حتى أدركتها أوائل هذه الأمة .
ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا
لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » .

(فهل من مدكر ؟) أى فهل من معتبر بتلك الآية الحرة بالاعتبار ، الجديرة
بطويل التفكير والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ،
المتخذين له الأنثاد والأوثان .

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال :

(فكيف كان عذابي ونذر ؟) أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ،
وما أظع إنذارى لهم بما أحلته بهم من العقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل
مكذب جبار .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد ، وعظيم التهديد ، لكل باغ عنيد ،
ساخط على الرسل ، مكذب بربه .

والخلاصة — انظر كيف كان عذابي لمن كفر بى ، وكذب رسلى ، وكيف انتصرت لهم ، وأخذت أعداءهم بما يستحقون ؟ .

ثم ذكر أن هذا القصص وأمثاله إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى فقال :

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) أى ولقد سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، وملائناه بأنواع العبر والمواعظ ، ليعتظ به من شاء ، ويتدبر من أراد « وَذَكَرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِىُّ تَذَفُّعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » وقوله : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : نولاً أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .

(فهل من مدكر) أى فهل من متعظ به ، مزدجر عن معاصيه ، أى ما أقبل من تذكرة به ، واتعظ بأمره ونهيهِ .

(٢) قصص عاد قوم هود

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (٢١) وَلَقَدْ يَمَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ هَلَلُوا مِنْ مُدَّكَرٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الريح الصرصر: انبردة أشد البرد ، والنحس : الشؤم ، منقعر : أى مقتلع من أصوله ؛ يقال قعرت النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص قوم نوح وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر ، أعقبه بقصص عاد قوم هود ، ليبين للمكذبين أن عاقبة كل مكذب الهلاك والبوار وإن تعددت أسبابه .

ومن لم يمت بالسيوف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد فقد أرسل الله عليهم ريحا عاصفا ، لصونها صرير حين هبوطها في يوم شؤم عليهم ، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار ، وكانت الريح لشدها تقتلع الناس من الأرض وترفعهم إلى السماء ثم ترمي بهم على رؤوسهم ، فتندق رقابهم ، وتبين من أجسامهم ، فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسوله ، كما هي سنة الله في أمثالهم من المكذبين .

الإيضاح

(كذبت عاد) أى كذبت عاد بنبيهم هود: في أنهم به عن الله ، كما كذبت قوم نوح من قبلهم نبيهم .

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابى إياهم وعقابى لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هود . وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغى والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه القلوب السامعين إلى الإصغاء لما يلقى إليهم قبل ذكره ،

وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاري لهم .

ثم فصل ما أجمله أولا فقال :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) أي إنا بعثنا إلى عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بربههم ريحا شديدة العصفوف في برد ، نصوتها صرير في زمن شؤم ونحس عليهم ، إذ ما زالت مستمرة حتى أهلكتهم .

ونحو الآية قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » وقوله : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أي متتابعة . وما روى من شؤم بعض الأيام فلا يصح شيء منه ، فالأيام كلها لله ، لا ضرر فيها لذاتها ، ولا محذور منها ، ولا سعد فيها ولا نحس ، فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشر لهم ، فكل منها يتصف بالأمرين إلا إنما الأيام أبناء واحد وهذى الليالي كلها أخوات

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس وينسبون في ذلك أبياتا لعلي كرم الله وجهه ، لا يصح منه شيء ، وإنما هو نزغات شيعية لا تستند إلى ركن من الدين ركين .

(تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) أي تقتلهم حتى يصيروا كأنهم أعجاز نخل قد انقلع من مغارسه في الأرض .

وفي الآية إيماء إلى أن الريح كانت تقتلع رؤوسهم فتبقى الأجسام ولا رؤوس لها ، وإلى أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال كالنخل ، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم في الأرض وقصدوا بذلك مقاومة الريح ، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة شدة بردها .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانها فقال :

(فكيف كان عذابي ونذر) أي فانظروا كيف كان عذابي وإنذاري ،

وقد كرره تعظيماً لشأنه ، وهذه سنة في بلبغ الكلام ، في باب النصح والإرشاد ،
وباب التهديد والوعيد ، وقد يكون الأول إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثاني إلى
عذاب الآخرة كما جاء في قصصهم في آية أخرى « لِنُذِيقَنَّهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ خِزْيٌ وَهُمْ لَا يَنْصَرُونَ » .
(ولقد بسرنا القرآن لنذكر فيل من مذكر) الكلام فيه كسابقه فلا نعيده .

(٣) قصص ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِ
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَتَلْقَى الَّذِي كُرُّ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥)
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسَلُونَ نَاقَةً فَتَنَةً لَهُمْ
فَارْتَبِعْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَابْيَضَّتْهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ
مُّخْتَصَرٌ (٢٨) فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ (٣١)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) .

شرح المفردات

النذر : أى بالرسول ، وتكذيب صالح تكذيب لهم جميعاً لاتقديم جميعاً على
أصول الشرائع ، والسعر : أى الجنون ؛ ومنه ناقة مسعورة : إذا كانت تفرط في سيرها
كأنها مجنونة ، والذكر : الوحى ؛ والمراد بالغد وقت نزول العذاب بهم ، والأشر
شديد البطر ؛ والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقوقها ،

فتنة : أى امتحانا واختبارا ، فارتقبهم : أى فانتظرهم ، واصطبر : أى واصبر على أذاهم ، والشرب : النصيب ، محتضر : أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضر من أخرى ، صاحبهم : هو قدار بن سالف أخيمر ثمود ، فتعاطى : أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، فعقر : أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، صيحة واحدة : هى صيحة صاحبا جبريل عليه السلام ، والمهشم : ما تهشم وتفتت من الشجر ، واحتظر : الذى يعمل الحظيرة فتساقط منه بعض أجزاء وتفتت حال العمل .

المعنى الجملى

قص الله علينا قصص ثمود مع نبيه صالح ، إذ قالوا : أنحن العدد الجم ، والكثرة الساحقة ، نتبع واحدا منا لا امتياز له عنا ؟ إنا إذا فعلنا ذلك لنى ضلال وبعد عن محجة الصواب ، وإنه لكاذب فى يدعيه من الوحي عن ربه ، وما هو إلا بشر وليس بملك ، فقال لهم ربهم : سيعلمون بعد وقت قريب من الكذاب البطر ؟ وقد جعلنا ناقة فتنة واختبارا لهم ، فأمرناه أن يخبرهم بأن ماء البئر يقسم بينها وبينهم ، فلما يوم وهم آخر ، فما ارتضوا هذا وقام فاسقهم قدار وعقر الناقة فغرت صريعة ، فجازاهم الله فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالمهشم الذى يتفتت حين بناء حظيرة الماشية .

الإيضاح

(كذبت ثمود بالنذر) أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقه ، وهم وإن كذبوا صالحا فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعا ، لانفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجىء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال :

(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟) أى أنتبع واحدا من الدهماء ، لامن عليه

القوم ولا من أشرفهم ، وليس له ميزة عن امرئ منا يعلم ظاهر ولا ثروة وغنى تجعله يدعى أن يكون الزعيم لنا .

ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم :

(إنا إذا في ضلال وسعر) أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللتنا الصراط السوى .

وجانبنا الصواب ، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذى لا يرضى به عاقل لنفسه .

روى أن صاحباً كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ،

فعمسوا عليه مقالهم بعتوهم واستكبارهم فقالوا : إنا إن اتبعناك كنا كما تقول :

ثم بالغوا فى العتو والإنكار وتعجبوا من أمره ونسبوه إلى الاختلاق

والكذب فقالوا :

(أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشرف) أى أنزل عليه الوحي من

بيننا وأوتى النبوة وهو واحد منا ؟ وكيف اختصه الله بئزال الشرائع عليه وهو ليس

بملك مكرّم ؟ الحق إنه الكذاب متعجب ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان

علينا ، ويود أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به

الشیطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له وتهديدا لقومه ووعدا لهم فقال :

(سيعلمون غدا من الكذاب الأشرف ؟) أى سيعلمون عن قريب حين يحل

بهم الهلاك الدنيوى - من الكذاب البطر الذى حمّله بطره على ما فعل ، أصالح

فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ هداية قومه إلى الحق وإلى طريق

مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواه عليه الاختلاف والكذب ؟

وقصارى ذلك - سيتبين لهم أنهم هم الكذابون الأشرون .

وأورد الكلام على طريق الإيهام للإشارة إلى أنه مما لا يخفى ، جريا على أساليبهم

كقوله تعالى أمرا رسونه أن يقول للمشركين : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى

أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » وقوله :

فان اقيمتك خاليتين اتعلمن اتي وأنت فارس الأحزاب

ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال :

(إنا مرسلو الناقة فتنه لهم) أى : إنا مخرجو الناقة من الهضبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنه واختبارا لهم ، أيؤمنون بالله ويبيعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه ويكفرون به ؟ .

(فارقبهم واصطبر) أى : فانتظر ماذا هم فاعلون ؟ وأبصر ماذا هم صانعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلت عدوك .

(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى وأخبرهم أن ماء البئر التى لهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصه منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعل القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم .

(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) أى فملت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص من الناقة ، فنادوا قدار بن سالف وكان أشقاها ليعقرها وحضوه على ذلك ، فلقي طلبهم وتناولها بيده وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة .

ثم ذكر عقابهم الفظيع فقال :

(فسكيف كان عذابي ونذر ؟) قد سبق تفسير هذا .

ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أى إنا أرسلنا جبريل فصاح بهم صيحة فصاروا كالخشيش البالى الذى يجمهه صاحب الخطيرة لما شيته ، وكأنهم هلكوا من أمد بعيد .

وقصارى ذلك — إنهم بادوا عن آخرهم ولم تبق منهم باقية ، وهمء إكاليهمد
يميس الزرع والنبات .

(ولقد يسرنا القرآن لذكر فهل من مدكر ؟) مر بيان هذا .

(٤) قصص قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥)
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ
فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ
مُسْتَقَرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) .

شرح المفردات

حاصبا : أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ، قال فى الصحاح : الحاصب
الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، والحَصَبَ (بفتح تين) ما تحصب به النار : أى
ترمى ، وكل ما ألقيته فى النار فقد حصبته به ، والسحر : السدس الأخير من الابل ،
وفال الراغب : السحر والشجرة : اختلاط ظلام آخر الابل بصفاء النهار ، والبطش :
الأخذ الشديد بالعذاب ، قماروا بالنذر : أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ،
راودوه عن ضيفه : أى صرفوه عن رأيه فىهم فصبوا منه أن يسد إليهم أضيافه ليفجروا
بهم ، فطمسنا أعينهم : أى فجبناها عن الأبصار فلم تر شيئا ، بكرة : أى أول النهار ،
مستقر : أى دائم بهم إلى أن يهلكوا .

المعنى الجملى

ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبىهم ومخالفتهم إياه ، واجتراحهم من السيئات ما لم يسبقهم به أحد من العالمين ، بإتيانهم الذكران دون النساء ، ثم أردفه بذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل عليهم إلا من آمن منهم ، فقد نجاهم بسحر ، وما أهلكهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله فكذبوه .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط بالنذر) أى كذبت قوم لوط بآيات الله التى أنذرهم بها .
ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب ونجاة من آمن منهم فقال :
(إنا أرسلنا عليهم حصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى إنا عاقبناهم بإرسال ريح تحمل الحصياء ، وما زالت بهم حتى دمرتهم ، إلا من آمن منهم ، فإنا أمرناهم بالخروج آخر الليل لينجوا من الهلاك .

ثم بين أن سبب إنجاء المؤمنين هو شكرانهم للنعمة فقال :
(نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر) أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا ، وهكذا نجزي من شكرنا على نعمتنا وأطاعتنا فائتم بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك إلا بعد أن أنذرهم عذابه وخوفهم بأسه فقال :
(ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) أى ولقد كانوا قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم نبىهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به .

ثم بين جرهم الذى استحقوا به العذاب فقال :
(ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه ضيوفه وهم الملائكة الذين جاءوا

في صورة شباب مُرَدِّ حسان ، محنة من الله لهم ، إذ قد بعثت إليهم امرأته العجوز السوء فأعلمتهم بأضيافه ، فأقبلوا إليه يُرَاعُونَ من كل مكان ، فأغلق لوط عليهم الباب ، فعدوا يعجلونه ليكسروا ، وهم يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه ويقول لهم : هُوَ لَأَنْ كُنَّا هُنَا أَطَهَرُ لَكُمْ ، فقاموا له : لقد علمت مالنا في بناتك من أرب ، وإنك اتعلم ما تريد ، فلما اشتد بينهم الصراع وأبوا إلا الدخول -- طمس الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فطمسنا أعينهم) فجعل بعضهم يحول في بعض ولا يرون شيئا ، ويقولون : أين ضيوفك ؟ وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة هود .

(فذوقوا عذابي ونذر) أى وقلنا لهم على السنة ملائكتنا : ذوقوا هذا العذاب عذاب طمس الأعين بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم وقبيح خلالكم .

ثم بين وقت مجيء العذاب فقال :

(ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور وما زال مُلِحًّا عليهم حتى أخذهم وبلغ غايته في دمارهم وهلاكهم .

ثم حكى ما قيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديدا للعذاب فقال :

(فذوقوا عذابي ونذر) أى فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل ، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) هذه الجملة القسمية وردت في آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريرا لمضمون ما سبق من قوله : (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر) وتنبيها إلى أن كل قصة منها مستقبة يلحظ الأدكار ، كافية في الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار .

وقد جاء هذا التكرير في سياقي في سورة الرحمن من قوله : « فَبَأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله في سورة المرسلات : « قَوْلِيلُ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ » .

وهذا كثير في كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هاتم الأمور ، كقولهم :
 . أهل في رثاء أخيه كليب حين قتل :

قربنا مربوط النعمة مني . فمحت حرب وائل عن حياي

قربنا مربوط النعمة مني . شاب رأسي وأنكرتني عيالي

، هي ضويلة جارية على هذا : لسن ، والنعامة فرسه ، ولقيحت : أي حملت .

(هـ) قصص آل فرعون

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ
 أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) .

شرح المفردات

النذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ؛ وهي الآيات التسع التي أنذرهم بها موسى
 صلى الله عليه وسلم ، عزيز : أي لا يغالب ولا يغلب ، مقتدر : أي لا يعجزه شيء .

الإيضاح

(ولقد جاء آل فرعون النذر) أي وتالله لقد تواتت عليهم الإنذارات ،
 وجاءتهم الآية تلو الآية فكذبوا بها .

ثم أبان ما فعه على توالي النذر فقال :

(كذبوا بآياتنا كلها) أي كذبوا بأدلتنا وبرهاناتنا التي أرسلناها إلى موسى ،

وقد تقدم ذكرها في سورة الأعراف .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) أى فعاقبناهم بكفرهم بالله - عقوبة مقتدر على ما يشاء غير عاجز ولا ضعيف .

توبيخ قریش على كفرهم برہم

وأنهم سیهز مون كما هزم الأولون

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)
بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهى وَأَمْرٌ (٤٦) .

شرح المفردات

براءة : أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، والزبر : الكتب السماوية
واحد زبور ، يولون : أى يرجعون ، والدبر : أى الأدبار هاربين منهزمين ،
والساعة : هى القيامة ، موعدهم : أى موعد عذابهم ، أدهى : أى أعظم داهية وهى
الأمر الفظيع الذى لا يهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ،
وأمر : أى أشد مرارة فى الذوق؛ والمراد الشدة والهول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم نوط وقوم فرعون ،
وفصل ما أصيبوا به من عذاب الله الذى لا مرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم
لرسله - أعقب هذا بتنبية كفار قریش إلى أنهم إن لم يشوبوا إلى رشدكم ويرجعوا
عن غيهم فستحل بهم سنتنا ، ويحقق بهم من البلاء مثل ما حل بأضرابهم من
المكذبين من قبلهم ، ولا يحدون منه محيصا ولا مهربا ، ثم خاطبهم خطاب إنكار

وتوبيخ فقال لهم : علام تتكلمون ، وماذا تظنون ؟ أنتم خير من سبقكم عددا وكثرة مال وبطشا وقوة ، أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتهم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون أنكم جمع كثير لا يمكن أن يقال بسوء ، ولا تصل إلى أذاكم يدُهما أوتيت من القوة ؟ كلا إن شيئا من هذا ليس بكان ، وإنكم ستهزمون وتولون الأدبار في الدنيا وسيحل بكم قضاء الله الذي لامر منه ، وما سترونه في الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالا ، فأفيقوا من غفلكم ، وأنيبوا إلى ربكم ، عسى أن يرحمكم .

الإيضاح

(أ) كفاركم خير من أولئكم) أى أ كفاركم يامعشر قر يش خير من أولئكم الذين أحلت بهم تقمى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابي وتقمتى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى .

وتنخيص المعنى — ما كفاركم خير من سبقهم ، فهم ليسوا بأكثر منهم قوة ، ولا أوفر عددا ، ولا ألين شكيمة في الكفر والعصيان والضلال والطغيان ، بل هم دونهم في كل ذلك ، وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم ، فكيف يطمعون في المهرب من مثل ذلك ، فليثوروا إلى رشدهم ، وليرجعوا عن غيهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

ثم انتقل من توبيخهم الأول إلى توبيخ أشد منه فقال :
(أم لكم براءة في الزبر) أى أم لكفاركم صك بالبراءة من تبعات ما تجترحون من السيئات ، وأن ربكم لن يعاقبكم على ما تدسّون به أنفسكم من الشرور والآثام ؟ فأنتم على هذا الصك تعتمدون ، وبهذا الوعد آمنون ، حقا إنكم لتطمعون في غير مطمع ، وليس بين أيديكم ولا قلامة ظفر من هذا — فعلام تتكلمون ؟ وإلام تستندون ؟

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ) أَيْ أَمْ هُمْ يَقُولُونَ نَحْنُ وَاثِقُونَ بِشَوْكَتِنَا ، فَنَحْنُ قَوْمٌ أَمَرْنَا بِجَمْعِهِمْ ، لِانْزَامٍ وَلَا نِضَامٍ ، وَإِنَّا مَنْصُورُونَ عَلَى مَنْ قَصَصْنَا بِسُوءِ ، أَوْ أَرَادَ حَرْبَنَا وَتَفَرُّيقَ جَمْعِنَا .

وجماع القول — إِنَّهُ تَعَالَى سَدَّ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكَ ، وَنَقَضَ جَمِيعَ الْمَعَاذِيرِ الَّتِي رَجَّاهَا تَعَالَوْا بِهَا فِي عَدَمِ تَصْدِيقِهِمُ بِالرَّسُولِ ، وَفِي كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : لَمْ لَا تَخَافُونَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مِثْلُ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَكُمْ ؟ أَمْ أَنْتُمْ أَقْلُ كُفْرًا وَعِنَادًا مِنْهُمْ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ الْأَمْنِ مِنْ حُلُولِ مِثْلِ عَذَابِهِمْ بِكُمْ ؟ أَمْ أُعْطَاكُمْ اللَّهُ بَرَاءَةً مِنْ عَذَابِهِ ؟ أَمْ أَنْتُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ جِنْدًا فَأَنْتُمْ تَنْتَصِرُونَ عَلَى جُنْدِ اللَّهِ ؟

ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ مَقَالَهُمْ وَأَيَّانَ لَهُمْ أَنْهُمْ يَعْيشُونَ فِي بَحْرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَأَنْ قَضَاءَ اللَّهِ سَيَحِلُّ بِهِمْ ، وَسَيَهْزَمُونَ وَيُولُونَ الْأَدْبَارَ مَتَى جَاءَ قَضَاؤُهُ فَقَالَ :

(سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ) أَيْ سَيَتَفَرَّقُ شَمْلُهُمْ وَيُغْلَبُونَ حِينَ يَلْتَقِي جَيْشُهُمْ وَجَيْشُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، فَانْهَزَمُوا وَوَلُوا الْأَدْبَارَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَكَانَ هَذَا دَلِيلًا مِنْ دَلَائِلِ النَّبُوءَةِ ، فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ جَيْشٌ ، بَلْ كَانَ أَتْبَاعُهُ مُشْرِدِينَ فِي الْأَفَاقِ ، يَلَاقُونَ الْعَذَابَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي كُلِّ صَوْبٍ ، حَتَّى لَقِيَ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَمَّا نَزَلَتْ لَمْ أَعْلَمْ مَا هِيَ ؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبِسُ الدَّرْعَ وَيَقُولُ : سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ فَعَلِمْتُهُ — ثُمَّ اسْتَعْمَرَ انْهَزَامَهُمْ بَعْدَ .

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ : أَنْشَدْتُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا ؛ فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِهِ وَقَالَ : حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلْحَجْتَ عَلَى رَبِّكَ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَثْبُغُ فِي الدَّرْعِ وَيَقُولُ : (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ) . بَلَى السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ » .

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا وسيلاقون يوم القيامة ما هو أشد منه نكالا فقال :
(بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) أى إن ماسيلاقونه من العذاب
فى الدنيا من الهزيمة والقتل والأسر - هين إذا قيس على ما سيلاقونه من العذاب
فى الآخرة ، فإن ذا أشد وألم ، فهو عذاب خالد دائم ، وسيأتى بعد وصف ما فيه
من فظاعة ونكر .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى
وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا
أَبْرَأْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ
مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
مُسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ
مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) .

شرح المفردات

المراد بالمجرمين : المشركون كما جاء فى قوله : « يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ » .
فى ضلال : أى فى الدنيا عن الحق ، وسعر : أى نيران واحدها سعي ، يسحبون :
أى يجرون ، سقر : اسم للجهنم ، ومسها : حرها ، بقدر : أى مقدر مكتوب فى اللوح
المحفوظ ، أسرنا : أى شأنا ، واحدة : أى كلمة واحدة وهى قوله (كن) كليم البصر :
أى فى اليسر والسرعة ، أشياكم : أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ،
واحدكم شيعة ؛ وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، مذكر : أى متعظ ، فى الزبر :
أى فى كتب الحفظ ، مستطر : أى مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله ، نهر : أى

في نور وضياء ، في مقعد صدق : أى في مكان مرضى ، عند مليك مقتدر : أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب الأمم الماضية لرسالتها كما كذبت قريش نبيها ، وأعقبه بذكر ما أصابهم في الدنيا من العذاب والهوان — أردف ذلك بذكر مآسيتهم من النكال والوبال في الآخرة ، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سواقا ، إهانة وتحقيرا لهم ، ويقال لهم حينئذ توبيخا وتعنيفا : ذوقوا عذاب النار وشديد حرها ، ثم أعقبه ببيان أن كل شيء فهو بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمرا فإني يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التي كذبت رسالتها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ؛ ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون في جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(إن المجرمين في ضلال وسعر) أى إن المشركين بالله المكذبين لرسله — في ضلال عن الصراط المستقيم ، وعماية عن الهدى في الدنيا ، وعذاب أليم في نار جهنم يوم القيامة .

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة والإذلال حينئذ فقال :

(يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) أى يعذبون ويهانون يوم يحرقون على وجوههم في النار ، ويقال لهم ييلا ما وتعنيفا : ذوقوا حر النار وآلامها جزاء وفاقا لتكذيبكم رس ربكم في كل ما جاءوا به من الإنذار بهذا اليوم ، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب ، والتبشير بما لمتعقي فيه من ثواب .

ثم بين أن كل ما يوجد في هذه الحياة فهو لا يحدث اتفاقاً ، وإنما يحصل بقضاء الله وقدره فقال :

(إنا كل شيء خلقناه بقدر) أى إن كل كائن في هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها فى الخليقة .

ونحو الآية قوله : « وَخَقَّ كُلُّ شَيْءٍ قَدَرَهُ تَقْدِيرًا » وقوله : « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » وفى الحديث الصحيح « استمعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل : قدر الله وما شاء فعل ، ولا نقل نوأنى فعلت لكان كذا ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفت الأقلام ، وطويت الصحف » .

وبعد أن بين نفاذ قدره فى خلقه بين نفاذ مشيئته فيهم فقال :

(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنا إذا أردنا أمراً قلنا له كن فإذا هو كائن ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بشانية ولا ثالثة ، والله در القائل :

إذا أراد الله أمراً فآنس ————— يقول له (كن) قوله فيكون

وهذا تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الخلق ، فهى كلمح البصر أو هى أقرب .
وجماع القول - ما أمرنا للشيء إذا أردنا إيجاداً إلا قوله واحدة (كن) فيكون لامرأجة فيها ولا رد ، فهى فى السرعة كلمح البصر لا إبطاء ولا تأخير .

ثم أنبههم على ما هم فيه من غفلة وعماية عن الحق بعد وضوحه فقال :

(واقد أهلكنا أشياءكم فهل من مدكر؟) أى ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قریش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سلتنا فى أمثالهم ، بشى العقوبات ، ومختلف الوسائل « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ

مُصْبِحِينَ . وَيَاللَّيْلُ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » أفلا كان لكم في ذلك مزدجر تعتبرون به فتنبهوا إلى ربكم وتسلّموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ » .

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم وسيحاسبون على النقيير والقطمير فقال :

(وكل شيء فعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر) أى وكل شيء تفعلونه ،

فتدسون به أنفسكم من الكفر والمعاصي ، وتدنسونها به من الأرجاس والآثام فهو

مقيد لدى الكرام الكاتبين كما قال : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »

فما من صغيرة أو كبيرة إلا وهى مسطورة فى دواوينهم . وصحائف أعمالهم ، فلتحذروا

أيها الناس ما أنتم عليه فادموا من الحساب العسير على الجليل والحقير ، يوم لا يغنى

مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله

بقلب سليم .

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

« يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طابعا » .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيرا إن الصغير غدا يعود كبيرا

إن الصغير وإن تقادم عهده عند الإله مستطر تسطيرا

فاسأل هدايتك الإله فتتد فكفى بربك هاديا ونصيرا

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة فى ذلك اليوم - أردفه بما

يناله المتقون من الكرامة عند ربهم ، وما يحظون به من الشرف والرفى ، على

حسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب والعكس بالعكس فقال :

(إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) أى إن الذين

اتقوا عقاب ربهم بطاعته وأداء فرائضه واجتنابوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل

فى السر والعلن ، يثيبهم بما عملوا جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور

من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على شاق الطاعات ، وحرموها منه أنفسهم من اللذات ، كما قيل للربيع بن خثيم وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه : أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب .

كما ينافون الزاني عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب ، وهو العزيز الحكيم .
اللهم احشرونا في زمريهم واجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع الجيب ، ذو الطول العظيم .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) الإخبار بقرب مجيء الساعة .
- (٢) تكذيب المشركين للرسول وقولهم في معجزاته : إنها سحر مفترى .
- (٣) غفرتهم عما في القرآن من الزواجر .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى يأتى قضاء الله فيهم .
- (٥) إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسى الرؤوس مسرعين كأنهم جراد منتشر .
- (٦) قصص المكذبين من سالفى الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، وما لا قوه من الجزاء على تكذيبهم .
- (٧) توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر .
- (٨) ما يلاقوه من الجزاء فى الآخرة إهانة وتحقيرا لهم .
- (٩) بيان أن كل ما فى الوجود فهو بقضاء الله وقدره .
- (١٠) نفاذ مشيئة الله وسلطانه فى السكون .
- (١١) بيان أن كل أعمال المرء فى كتاب قد خطه الكرام الكاتبون .
- (١٢) ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم وما لهم من الزاقي لديه .

سورة الرحمن

هي مكية وعدة آياتها ثمان وسبعون ، نزلت بعد سورة الرعد .
 ووجه صلتها بما قبلها :

(١) إن فيها تفصيل أحوال الجرمين والمتقين التي أشير إليها في السورة السابقة إجمالاً في قوله : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » وقوله : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » .

(٢) إنه عدد في السورة السابقة ما نزل بالأمم التي قد خلت من ضروب النعم وبين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس وإيقاظهم ، ثم نعى عليهم إعراضهم - وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية في الأنفس والآفاق ، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب شكرها .

(٣) إن قوله : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » كأنه جواب سائل يقول : ماذا صنع للمليك المقتدر ، وما أفاد برحمته أهل الأرض ؟ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
 وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
 وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) .

شرح المفردات

الرحمن: اسم من أسماء الله الحسنى ، والإنسان هو هذا النوع ، البيان : تعبير الإنسان عما فى ضميره وإفهامه لغيره ، بحسبان : أى بحساب دقيق منظم ، والنجم : مالا ساق له من النبات كالخنطة والبقول . والشجر : ماله ساق كالنخل والبرنقل ، يسجدان : أى ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكفون اختياراً ، رفعها : أى خلقها مرفوعة الحل والمرتبة ، والميزان : العدل والنظام ، وأقيموا الوزن بالقسط : أى قوموا وزنكم بالعدل ولا تحسروا الميزان : أى لا تنقصوه ، للأنام : أى للخلق ، والأكمام : واحدها كم (بالكسر) وعاء الثمر ، والعصف : ورق النبات الذى على السفلة ، والريحان : كل مشوم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها إلهى (بفتح الهمزة وكسرها) وإلهى وإلهى .

المعنى الجملى

- بين سبحانه ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده ، رحمة بهم فأفاد :
- (١) أنه عم القرآن وأحكام الشرائع هداية الخلق وإتمام سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .
 - (٢) أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم وكمله بالعقل والمعرفة .
 - (٣) أنه علمه النطق وإفهام غيره ، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل .
 - (٤) أنه سخر له الشمس والقمر والنجوم على نظام بديع ووضع أنيق لحاجته فيها فى دنياه ودينه .
 - (٥) أنه سخر له النجم والشجر ليقنات منهما .

(٦) أنه رفع السماء وأقامها بالحكمة والنظام .

(٧) أنه أوجد الأرض وما فيها من نخل وفاكهة وحب ذى عصف وريحان .

الإيضاح

(الرحمن علم القرآن) أى الله سبحانه علم محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ،
ومحمد علمه أمته .

وهذه الآية نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا : « إِنَّمَا يُعَمِّدُهُ بِشَرِّ » .

ولما كانت هذه السورة لتعديد نعمه التى أنعم بها على عبده - قدم النعمة التى
هى أجلها قدراً وأكثرها نفعاً ، وأتمها فائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن الكريم ، فباتباعه
تكون سعادة الدارين ، وبالسير على نهجه تنال الرغائب فيهما وهو سنام السكائب
السموية ، وقد نزل على خير البرية .

ثم امتنَّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع
الأشياء فقال :

(خلق الإنسان علمه البيان) أى خلق هذا الجنس وعنه التعبير عما يختلج
بخطاره ويدور بخنده ، ولولا ذلك ما علم محمد القرآن لأمته .

ولما كان الإنسان مدنيا بطبعه لا يعيش إلا مجتمعا بسواه - كان لابد له من
لغة يتفاهم بها مع سواه من أبناء جنسه ويكتب إليه فى الأقطار النائية ، والبلاد
النازحة ، ويحفظ علوم السلف ، لينتفع بها الخلف ، ويزيد فيها اللاحق ، على
ما فعل السابق .

وهذه منة روحية كبرى لاتعدّها منة أخرى فى هذه الحياة ، ومن ثم قدمها على
النعم الأخرى الآتية .

وقد بدأ أولاً بما يتعمد وهو القرآن الذى به السعادة ، ثم ثنى بالتعلم ، ثم ثلث
بطريق التعلم وكيفيته ، ثم انتقل إلى ذكر الأجرام العلوية التى ينتفع بها الناس
فى معاشهم فقال :

(الشمس والقمر بحسبان) أى إن الشمس والقمر وهما من أعظم الأجرام
يجريان فى بروجهما ومنازلهما بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنظم أمور الخلق
الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان انتفع بهما الناس فى شئون الزراعة
كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها فى كل فصل من الفصول ، وفى الأمور
المالية من بيع وشراء لأجل محدودة من شهور وسنين ، وفى تقدير الأعمار والآجال
التي تقدمت ، وجاءت فى أخبار الماضين ، والتي ستكون للحاضرين .

وبعد أن ذكر أن الشمس والقمر طوع قدرته وقد جعل لهما النظم الدقيقة
فى الحسبان - أردفه باتقياد العوالم الأرضية له فقال :

(والنجم والشجر يسجدان) أى والزرع والشجر ينقادان لله فيما أراد بهما طبعاً
كما ينقاد المكلف اختياراً ، فما اختلافهما فى الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعم
والرائحة ، إلا انقياد للقدرة التي أرادت ذلك .

(والسماء رفعها ووضع الميزان) أى وجعل العالم العلوى رفيع القدر ،
إذ هو مبتدأ أحكامه ، ومتمنزل أوامره ونواهيه لعباده ، وسكن ملائكته الذين
يهبطون بالوحي على أنبيائه ، وجعل نظم العالم الأرضى تسير على نهج العدل ، فعُدل
فى الاعتقاد كالتوحيد ، إذ هو وسط بين إنكار الإله والشرك به ، وعدل فى العبادات
والفضائل والآداب ، وعدل بين القوى الروحية والبدنية ، فأمر عباده بتزكية نفوسهم
وأباح لهم كثيراً من الطيبات لحفظ البدن ، ونهى عن الغلو فى الدين والإسراف
فى حب الدنيا ، وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما فى هذا العالم لا يغادر الصغير
ولا الكبير منه .

(ألا تظفوا فى الميزان) أى فعل ذلك لئلا تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغى من العدل
والنصفه وجرى الأمور وفق ما وُضع لكم من سنن الميزان فى كل أمر ، فترقى
شئونكم ، وتنظم أعمالكم وأخلاقكم .
ثم أكد هذا بقوله :

(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) أى قوموا وزنكم بالعدل ، ولا تنقصوه شيئاً : وفى هذا إشارة إلى مراعاته فى جميع أعمال الإنسان وأقواله .
والتكرير للتوصية به وتأكيد الأمر باستعماله والحث عليه ، وقد أمر سبحانه أولاً بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحد . ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

وقال قتادة فى هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أن يُعدل لك ، وأوف كما تحب أن يُوفى لك ، فإن فى العدل صلاح الناس .

وبعد أن ذكر نعمه ابدلة على قدرته برفع السماء ذكر مقابليها وهو الأرض فقال :
(والأرض وضعها للأنام) أى والأرض بسطها لسكنى الحيوان من كل ماله روح وفيه حياة لينتفع بها فى ظاهرها وباطنها فى معاشه على ضروب مختلفة وأشكال لاحتصر لها .

ثم فصل ما تقدم بقوله :

(فيها فاكهة) أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار طازجة ومطبوخة ومجففة على شتى الأشكال وضروب الألوان .

(والنخل ذات الأكمام) أى والنخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره ، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابس ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزناجيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل ثمارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

(والحب ذو العصف والريحان) أى وجميع الحبوب التى يقات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنا بلها ، وكل مشوم من النبات تطيب رائحته . وذكر أولاً الفاكهة ، لأنها للتعفك خصب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء .

ثم الحب الذي عييه المعول في الغذاء في جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله في سائر البلاد ، وجعل النخل في البلاد الحارة دون غيرها .

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي فبأي النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشرأ بهم آلهتهم به في العبادة دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم .

والتعبير (بالرب) للإشارة إلى أنه نعم صادرة من المالك المربي لها الذي يتيها أجساما وعقولا ، فهو الحقيق باخذ والشكر على ما أولى وأنعم ، والعبادة له دون سواه .

وقد كررت هذه الآية في واحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، فتراه عدد نعمه على الخلق وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وهذا أسلوب كثير الاستعمال في كلام العرب : فترى الرجل يقول لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها ، ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ، ألم تكن خاملا فرفعت قدرك ، أفتنكر هذا ؟ .

فكأنه سبحانه قال : ألم أخلق الإنسان . وأعلمه البيان . وأجعل الشمس والقمر بحسبان . وأنوع الشجر . وأبدع الثمر . وأعمها في البدو والخضر ، لمن آمن بى وكفر . وأسقيها حيناً بالمطر ، وآونة بالجدول والنهر . أفتنكران ذلك أيها الإنس والجن ؟ .

وقد جاء مثل هذا في أشعارهم : انظر قول مهمل يرثى أخاه كليب :

على أن ليس عدلا من كليب إذا ماضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب إذا خرجت مخبأة الخدور

على أن لبس عدلا من كليب إذا خيف الخوف من الثغور
 على أن ليس عدلا من كليب إذا ما خار جأش المستجير
 وهي قصيدة طويلة على هذا النسق ، ولها نظائر أيضا في رثائه ، ولولا خشية
 التطويل لأوردنا شيئا منها . وعدلا أى مثلا ونظيرا .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ
 مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ
 الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
 يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 (٢١) يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ (٢٥) .

شرح المفردات

الصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقر ، والفخار : الخزف
 وهو الطين المطبوخ ، والجان : نوع من الجن ، والمارج : اللهب الخالص الذى لا دخان
 فيه ، رب المشرقين : أى مشرق الشمس صيفا وشتاء ، ورب المغربين : أى مغربيهما
 كذلك ، مرج البحرين : أى أرسلهما وأجراهما من قولهم مرجت الدابة فى المرعى :
 أى أرسلتها فيه ، يبتغيان : أى يتجاوران وتماس سطوحهما لافصل بينهما فى رأى
 العين ، برزخ : أى حاجز ، لا يبغيان : أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة
 وإبطال خاصته ، واللؤلؤ : الندر الخفوق فى الأصداف ، والمرجان : الخرز الأحمر ،

الجوارى : السفن الكبار ، المنشئات : أى المصنوعات ، والأعلام : الجبال واحده .
عم وهو الجبل العالى .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه كثيرا من النعم وكان بعضها يحتاج إلى زيادة إيضاح
و بيان كخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وأسباب نمو الزرع والشجر -
فصل أحوالها على الترتيب السابق .

الإيضاح

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار) أى خلق الإنسان الأول وهو آدم
عليه السلام من طين يابس له صلصلة إذا نقر ، وهو كالخزف المطبوخ فى صلابته .
يضاح هذا أن الطين المطبوخ مركب من الطين والحرارة التى أنضجته وسوّته
لتحفظ كيانه ؛ وهكذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزواج ، لتبقى بنيته وتدوم
حياته بالمادة الأرضية التى اجتذبها النبات من الأرض ؛ وله قوة غضبية تورثه الشجاعة
والقوة ليحافظ على بقائه وحياته ، ويمنع عن نفسه عاديّات الكواسر ، ومهاجمات
الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ، وهذه القوة فى الإنسان تقابل طبخ
الطعام ليصير فخارا ، فتماسك أجزاؤه ، ولولاها لما استطاع المحافظة على هيكله
المنصوب ، وجسمه المحبوب ، من الكواسر وأهل القسوة من بنى الإنسان ،
ولأصبح قتيلًا فى الفلوات تأكله الطير ، أو تهوى بأجزائه الريح فى مكان سحيق ؛
كما أن الطين إذا لم يطبخ يفتت وتذروه الرياح أو يذوب فى أجزاء الأرض .
وقد جاء فى الكتاب الكريم عبارات مختلفة فى خلق الإنسان باعتبار مراتب
الخلق ؛ فمرة قال إنه خلقه من تراب وأخرى قال إنه من طين لازب : أى لاصق
باليد ، اختلط به الماء ، وهنا قال من صلصال .

(وخلق الجن من نار) أى وخلق الجن من النار الصافية المختط بعضها ببعض ، فمن لهب أصفر إلى أحمر إلى مشوب بالخضرة ؛ فكما أن الإنسان من عناصر مختلفات ، فالجن من أنواع من اللهب مختلفات .
ولقد أظهر الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة ، ولفظ (الماراج) يشير إلى ذلك ، وإلى أن اللهب مضطرب دائماً .

(فبئى آلاء ربكم تكذبان) مما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكم من سوابغ النعم .

روى نافع عن ابن عمر قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال : ما لى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ما أتيت عنى قول الله (فبئى آلاء ربكم تكذبان) إلا قالت الجن : لا بشئ من نعمة ربك نكذب » .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان قال : (رب المشرقين ورب المغربين) أى رب مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ، اللذين يقرب عليهما قلب الفصول الأربعة ، وتقرب الهواء وتنوعه ، وما لى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجارية .

(فبئى آلاء ربكم تكذبان) أى فبئى نعمة من هذه النعم تكذبان ؟ أفتنكران الأمطار وفوائدها ؟ أم تنكران ما لاختلاف الفصول من منافع ، فيها تختلف صنوف المزروعات من صيفية إلى شتوية ، أم تنكران ما لاختلاف الأجواء من مزايا فى تنظيم مزاج الإنسان والحيوان .

ولما ذكر نعمة التى تقر على عباده فى البر أعقبها بنعمة عليهم فى البحر فقال : (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقين لا يبغي أحدهما على الآخر ، ولا الملح يطغى على العذب فيجعلهما ملحاً ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من

قدرته ، أو يحاجز من الأجرام الأرضية ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جهات
الجبشة ، ويجرى شمالا حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبنى أحدهما
على الآخر .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه المنافع تكذبان ؟ إذ لو بغى الملح
على العذب لم نجد ماء للشرب ولا لاسقى الحيوان والنبات ولم نجد ما نقات به ،
فنهلك جوعا ، ولو بغى العذب على الملح لم نجد ما يصالح الهواء ويمنع عاديات الجراثيم
التي فيه .

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقد ثبت في الكشف الحديث أن اللؤلؤ كما
يستخرج من البحر الملح يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان وإن كان
الغالب أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

(وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار التي رفعت
شرعها في الهواء كالجبال الشاهقة ، تجرى في البحر بما ينفع الناس ، فتتنقل المتاجر من
بلد إلى آخر ، والأقوات من إقليم إلى آخر هو محروم منها ، وبذا يتم
تبادل السلع ، وسد حاجات الأمم في أقواتها ومشاربها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان - أبحلق مواد السفن
أم بكيفية تركيبها ، أم بإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر عليها غيره سبحانه .

أى عبادى ، هل ظننتم أن مجرد الإيمان كاف لكم في شكر هذه النعم ، فهل خلقت
الشمس والقمر والنجم والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدر والمرجان
لقوم لا يعقلون ، أو خلقتها لقوم يقبلون منى النعمة ، وكيف يقبلونها دون أن يعرفوها؟ .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) .

شرح المفردات

فان : أى هالك ، وجه ربك : أى ذاته ، ذو الجلال والإكرام : أى ذو العظمة
والكبرياء ، يسأله من فى السموات والأرض : أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه
فى ذواتهم حدوثا وبقاء وفى سائر أحوالهم بلسن المقال أو بلسان الحال ، هو فى شأن :
أى فى أمر من الأمور . فيحدث أشخاصا ويحدد أحوالا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر النعم التى أنعم بها على عباده فى البر والبحر ، فى السماء والأرض
أردف ذلك ببيان أن هذه النعم تفى ولا تبقى ، فكل شىء ينفى إلا ذاته تعالى ،
وكل من فى الوجود مفتقر إليه فهو المدبر أمره والمتصرف فيه ، فهو يحيى قوما ويميت
آخرين ، ويرفع قوما ويخفض آخرين .

الإيضاح

(كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) أى إن جميع
أهل الأرض يذهبون ويموتون ، وكذلك أهل السموات ، ولا يبقى سوى وجه
ربك الكريم ، فإنه الحى الذى لا يموت أبدا .

قال قتادة : أنبأ بما خفى ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان ، وقد ورد فى الدعاء المأثور
يا حى يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ،

برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكننا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك .

ثم وصف سبحانه نفسه بالاستغناء المطلق ، والفضل العام ، وأنه ذو الفضل والكبرياء ، يعطي خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه .

انظر إلى هذه النجوم الثواقب في ظلمات الليل ، ترها مشرقة ساطعة تتلألأ نورا تشرح له الصدور ، وتقربه العيون ، فتجني لك عظمة الخالق وكبرياؤه ، تموت الأحياء ، وتلك النجوم باقية ، والأرض لم تتغير على ما نشاهد ، وهذا مظهر الجلال والعظمة ، جمال في النجوم ، بهجة في الإشراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة أجسام عظيمة ، أحوال تتقلب ، وأحوال تتعاقب ، والناس من بينها يحزون صعقون ، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ، فسبحان الخلاق العظيم .

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي فبأي هذه النعم تكذبان ؟ فالفناء باب للبقاء وللحياة الأبدية ، والنعم السرمدية ، ولولا تحليل أجسامنا بالموت لتعطلت الحياة ، إذ المادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت قواها محدودة ، لكن انبعاث الصور الكثيرة وتعاقبها جيلا بعد جيل يلبس المادة جميع الصور والأشكال ويجعل العالم في تجدد مستمر .

انظر إلى بني الإنسان مثلا إذا تولدوا جيلا بعد جيل ولم يمت منهم أحد ، فلا تمضي إلا أجيال معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين ، فلا يكفيهم حيوان أرضي ولا نبات مأكول ولا يجدون وسيلة للعيش إلا أن يأكل بعضهم بعضا ، وتمتلئ الأرض ربما آدمية من السغب والمخمصة .

والخلاصة — إن في الفناء نعمتين . نعمة الرحمة بتعاقب الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح العالم الروحي والتمتع بنعيم آخر بعد الموت . ولما كان ما ذكر يتضمن الافتقار المتجدد إليه تعالى أوضحه بقوله :

(يسأله من في السموات والأرض) إذ أن المادة دائماً تلبس جديداً وتتحجج قديماً ، فأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال ، فهما في حاجة إلى بقاء الأجسام وتغذيتها وإذا انحل جسم افتقر إلى شيء يعوض ما ذهب ، فالتغيرات المستمرة افتقار ، وهذا الافتقار مستمر في كل لحظة ، وذلك يدعو إلى السؤال من الواهب المعطى إما بالنطق وإما بتوجه النفس وطبها العون والمدد والفيض من فضله .

وجماع القول — إن المادة مفتقرة إلى بقاء ما يناسبها ، فالتبئات في كل لحظة مفتقرة إلى ما يبقيه من ماء وهواء ومواد أخرى ، والحيوان يطلب ما يحتاج إليه ، والإنسان يسأل ما هو في حاجة إليه : إما سؤال حال ، وإما سؤال مقال في كل وقت وآن .

(كل يوم هو في شأن) فمن شئونه أنه يحيى ويميت ويرزق ويعزّ ويذل ، ويمرض ويشفي ، ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب ، ويرحم ويغضب ، إلى نحو أولئك .

ومن شئونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم ، وتباين أغراضهم .

عن عبد الله بن منيب قال : تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا يارسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » أخرجه الحسن بن سفيان والبخاري وابن جرير والطبراني وأبو نعيم وابن عساکر . وقال ابن عينة : الدهر عند الله يمان . يوم الدنيا وشأنه فيه الأمر والنهي ، والإمارة والإحياء ، ويوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب ، وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية ، وما صح من قوله صلى الله عليه وسلم « جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » فقال : شئون يبدئها ، لاشئون يبتدئها . (فبأي آلاء ربك تكذبان) أي فبأي هذه النعم تكذبان ؟ فكم من سؤال

أحبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف في الحياة أرحته ، إما بصحة تُسَعِّده ، أو بموت من سجن المادة يخرج به .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنَجَاسٍ فَلَا تَتَّقُونَ (٣٥)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) .

شرح المفردات

سنفرغ لكم : أى سنجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، والمراد التوفر على
الجزاء والانتقام منهما .

قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر
القصد للشيء والإقبال عليه كما هنا .

والثقلان : الجن والإنس كما علمت ، أن تنفذوا : أى تخرجوا ، والأقطار :
الجوانب واحدها قطر ، والسلطان : القوة والقهر ، والشواط : الاله الخالص ،
والنجاس : الدخان الذى لاهب فيه ، فال النابغة الديباني :

تضىء كضوء السراج السليط لم يجعل الله فيه نجاس
فلا تنتصران : أى فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكما منه ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه نعماءه على عباده فى البر والبحر وفى الأرض والسماء ،
ليشكروه على ما أنعم ، ويعبدوه وحده على ما أعطى وتمم ، وذكر أنهم مفتقرون

إليه آتاء الليل وأطراف النهار ، ثم أرشد إلى أن هذه النعم لا تدوم ، بل هي إلى زوال ، فكل ما على وجه الأرض سيفنى ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات نهبهم إلى أنه في يوم القيامة سيملقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، ولا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، وسيكون جزاء المشركين به العاصين لأوامره ، نارا تنلظى لا يصلها إلا الأشقى الذى كفر بربه وكذب برسله ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنقصده لحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم ، وهذا وعيد شديد وتهديد من الله لعباده ، كما يقول القائل لمن يهدده : إذا أنقرغ لك : أى أقصد قصدك .

هذا وإن شأن الآخرة ما هو إلا شأن من الشؤون ، فلا يشغله شأن عن شأن وهو القائل : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » والقائل : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعم ربكما تكذبان يامعشر الثقلين ، ومن جملتها التنبيه إلى ماستلحقونه من الجزاء في هذا اليوم ، تحذيراً مما سيؤدى إلى سوء الحساب ، وشديد العقاب .

ثم ذكر أنه لا مهرب في هذا اليوم من جزاء كل عامل على عمله فقال :

(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من عقاب الله ، فارتين من عذابه فافعلوا ، ولمراد أنكم لا تستطيعون ذلك ، فهو محيط بكم لاتقدرون على الخلاص منه ، فأينما ذهبتكم أحيط بكم .

ثم بين السبب في عدم إمكان المهرب فقال :
 (لا تنفذون إلا بسلطان) أى إن المهرب إنما يكون بالقوة والقهر ، وأنى لكم
 بهما ؟ ومن استمدونهما وأتم لا تجدون إذ ذاك حولا ولا طولا ؟
 (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ومن جعلها النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ،
 فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسمى عن إساءته ، مع أن من حذركم وأنذركم
 قادر على الإيقاع بكم دون مهلة ، والعفو عن المذنب مع كمال القدرة عليه من أجل
 النعم التي يسديها الله إلى عباده .

ثم بين السبب في طيب المهرب فقال :
 (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنقضران) أى يصب عليكم ألوان من
 النيران ، فمن لب خالص يضيء كضوء السراج ، إلى نار مختلطة بالدخن ،
 فلا تستطيعان المهرب منها ، بل يسوقكم إلى الحشر سوقا .
 (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن التهديد لطف
 والتميز بين المطيع والعاصي بالإنعام على الأول والانتقام من الثانى من أجل نعم الإله
 القادر على جزاء عباده .

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
 تُكذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَىِّ
 آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ فَيُؤْخَذُ
 بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ
 جَهَنَّمُ الَّتِي يُكذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
 آتٍ (٤٤) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ (٤٥) .

شرح المفردات

انشقت : تصدعت ، وردة : أى كالوردة فى الحرة ، والدهان : ما يدهن به :
أى كانت مذابة كالدهان ، واسيا : العلامة ، والنواصى : واحدها ناصية وهى مقدم
الرأس ، والأقدام : واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، والحميم : الماء الحار ،
وآن : أى متناهٍ فى الحرارة لا يستطيع شربه من شدة حرارته .

المعنى الجملى

بعد أن عدد عزت قدرته نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ،
ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها ولا ثبات ، ثم ذكر أن الناس محاسبون على
الصغير والكبير من أعمالهم ، وسيلقون الجزاء عليها ، ولا مهرب حينئذ منها ، ولا
نصير ينقذهم مما سيحل بهم من العذاب — ذكر هنا أنه إذا جاء ذلك اليوم اختل
نظام العالم ، فتتصدع السموات ويحمر لونها وتصير مذابة غير متمسكة كالزيت ونحوه
مما يدهن به ، ويكون للمجرمين حينئذ علامات يمتازون بها عن سواهم ، فيتعرفهم
الرأى لهم دون حاجة إلى سؤال نكالا وخزيا لهم ، ثم يجرون إلى جهنم من نواصيهم
وأرجلهم ، ويقال لهم توبيخا وتقريعا : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وينقل
بهم من جهنم إلى ماء حار كالهل يشوى الوجوه : ومن عذاب إلى ما هو أشد منه .

الإيضاح

(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) أى فإذا جاء يوم القيامة تصدعت
السموات واختلت نظمها ، وتبعثرت أجرامها وكواكبها عن مداراتها ، واحمر لونها
وأذيت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه مما يدهن به .
ونحو الآية قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَفَرَتْ »

وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » وقوله : « وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » .

والخلاصة — إنها تذوب كما يذوب دردىء الزيت والفضة حين السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها ، فتارة تكون حمراء وأخرى تكون صفراء وثالثة تكون زرقاء .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن الإخبار بنحو ما ذكر مما يزجر عن الشر ، فهو لطف أى لطف ، ونعمة أى نعمة .

(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف .

ونحو الآية قوله تعالى : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » ثم يسألون بعدئذ كما يدل على ذلك قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن تخويف المجرم ليرتدع نعمة عليه حتى يرتدع عن ذنبه ، ويثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه .

ثم ذكر السبب فى عدم سؤال الإنس والجان عن ذنوبهم فقال :

(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) أى يعرف المجرمون حينئذ بعلامات يمتازون بها عن سواهم ، فلا حاجة حينئذ إلى السؤال والجواب ، لأن السيماء ميزت كل مجرم بنوع جُرْمه .

ولقد اهتدى الإنسان بعقله إلى فوائد هذه العلامات فى الدنيا ، فأشأت الحكومات إدارات خاصة لعلامات المشتبه فى سلوكهم ومعتادى الإجرام ، فتأخذ إبهاماتهم وتحفظها فى أضياب خصيصى بهم ، ولكل امرئ خطوط فى إبهامه لاتشابه خطوط غيره فيه ولا يحصل فيها التباس ، ففى أحدث أهدم حدثا وجاء بمجرم

روجع ملفه الخاص واستخرجت صورة إيهامه من ملفه وطبقت على الصورة الخارجية ولاقى في المحاكم ما يستحقه من عقاب .

والخلاصة — إن لكل امرئ أحوالاً تخصه في جسمه وعقله وأخلاقه ، يعرف الناس منها الآن قليلاً ، وبقية علمها عند الله يُعلمها ملائكته يوم القيامة فيعرفون المجرمين بها .

ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصي ، وأخرى بأخذ الأقدام ، روى عن الضحاك « أن الملك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ، ثم يكسر ظهره ويلقيه في النار ، وقيل : تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية ، وبعضهم سحباً بالقدم ، ولا تجزم بشيء من ذلك إلا بالنص القاطع .

وهذا الوضع معهم سبيل من سبل الإهانة والإذلال والنكال .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ما سلف حذو القذة بالقذة .

(هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن) أى ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ، فهأنتم الآن قد شاهدتموها ورأيتموها رأى العين ، فذوقوا عذابها واشربوا من الحميم الذي يقطع الأمعاء والأحشاء فأنتم بين الجحيم والحميم .

والخلاصة — إنهم إذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآن الذى صار كالهلل (دردىء الزيت : أى عكره) .

ونحو الآية قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ما قيل فيما سلف .

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)
 ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ
 تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
 زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُشْكَيْنِ عَلَى فُرُشٍ
 بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا
 جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
 وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ
 إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١).

شرح المفردات

الخوف في الأصل : توقع المكروه عند ظهور أماره مظنونه أو محققه ، وضده
 الأمن : ويراد به هنا الكف عن المعاصي مع فعل الطاعات ، ومقام ربه : أى قيامه
 عليه وإطلاعه على أعماله ، جنتان : أى جنة روحية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكله
 ما عمل في الدنيا ، وقيل إنهما منزلان ينتقل بينهما لتتوافر دواعى لذته ، وتظهر آثار
 كرامته ، ذواتا : مثنى ذات بمعنى صاحبة ، والأفنان : الأنواع واحدها فن : أى
 ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، زوجان : أى صنفان رطب وياس ولا يقصر
 يابسه عن رطبه في الفضل والطيب ، والفرش : واحدها فراش ، والبطائن : واحدها
 بطانة ، والإستبرق أى الحرير الثخين ، والجنى : الثمر ، دان : أى قريب
 يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قاصرات الطرف : أى نساء يقصرن أبصارهن على

أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، لم يطعمهن : أى لم يتسهن ، وأصل الطمئ : خروج الدم ، ويراد به قربان النساء ، كنهن الياقوت : أى فى الصفاء ، والمرجان : أى صفار المؤنث فى البياض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يراه المستركون برهبهم والعصون لأوامره ونواهيه من الأهوال من إرسال الشواظ من النار عليهم ، ومن أخذهم بالنواصى والأقدام ، إهانة لهم واحتقاراً ، ومن التنقل بهم بين النار والحيم الآلى الذى يشوى الوجوه — ذكر هنا ما أعدّه من النعيم الروحى والجسمانى لمن خشى ربه وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والقواكه تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دان لمن طلبه وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج ، ومن نساء حسان لم يقرب منهم أحد لا من الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بياضا ، وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

الإيضاح

(ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان؟) أى ولمن خشى ربه وراقبه فى أعماله ، وأيقن بأنه مجازيه عليها يوم العرض والحساب ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، فإذا هو هم بمعصية ذكر الله وأنه عليم بسره ونجواه ، فتركها مخافة عقابه ، وشديد حسابه ، ففعل الخير وأحب الخير للناس — جنتان: جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس ، وجمال الملائكة ورضا الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » وجنة جسمانية بمقدار ما عمل فى الدنيا من خير ، وقدم من صالح عمل ،

فبأى نعم ربكما أيها الثقلان تكذبان ، فثابته المحسن منكم بما وصف ، وعقابه العاصى بما عاقب من النعم العظمى ، والمنن الكبرى .

(ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ذواتا أنواع وألوان من الأشجار والثمار من قولهم « أفن فلان فى حديثه إذا أخذ فى فنون منه وضروب مختلفة ، والمتنوّقون فى الدنيا يمتثلون من فاكهة إلى أخرى فيكون ذلك أدعى إلى زيادة اللذة ، وأكثر شهوة للطعام ، كما قال قائلهم :

ومن كل أفنان المذاذة والضبا لهوت به والعيش أخضر ناضر

(فيهما عيمان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما عيمان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسيل قاله الحسن البصرى . وقال أبو بكر الوراق : تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل ، فتجريان فى كل مكان شاء صاحبهما وإن علامكانه ، كما تصعد المياه فى الأشجار فى كل غصن منها وإن زاد علوها .

(فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما من كل فاكهة صنفان : رطب ويابس . لا ينقص أحدهما عن الآخر لذة وطيبا ، بخلاف ثمار الدنيا فإن الطازج فيها لذ طعما وأشهى مأكلا .

وبعد أن ذكر طعامهم ذكر فراشهم فقال :

(متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظواهر ؟ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف نوأخبرتكم بالظواهر ؟ وقيل لسعيد ابن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وبمثله قال ابن عباس .

وفي هذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ،
والنعيم المقيم .

وإنما ذكر الاتكاء . لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب ، إذ العليل
لا يستطيع أن يستلقي أو يستند إلى شيء ، وهو مشغول القلب يتحرك تحرك
المخضر للعقاب .

(وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وثمرهما قريب إليهم
متى شاءوا ، ونحو الآية قوله : « قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ » وقوله : « وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا »
وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا » فهي لا تمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها .
ثم ذكر أوصاف النساء اللواتي يتمتعون بهن فقال :

(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما
تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء غصبيات الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين
شيئا فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسسهن أحد قبل أزواجهن لامن الجن
ولا من الإنس .

(كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى كأنهن الياقوت
صفاء وصفار اللؤلؤ بيضاء .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية :
فى صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ .

ثم بين السبب فى هذا الجزاء فقال :

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ما جزاء
الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة .

ونحو الآية قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

وعن أنس بن مالك قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هَلْ جَزَاءُ

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ، وقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.
قال: ماجزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة «أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه
والبيهقي، وروى عن ابن عباس «هل جزاء من قال: لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة
في الآخرة»

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَّتَانِ
(٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ
حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ
ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨).

شرح المفردات

ومن دونهما: أي من ورأئهما وأقل منهما، مدهماتان: أي خضراوان بسواد؛
لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الري بالماء ونحوه، نضاختان
أي فوارتان بالماء، والنضخ: فوران الماء، حور: واحدتهن حوراء: أي بيضاء.
قال ابن الأثير: الحوراء هي الشديدة بياض العين والشديدة سوادها، خيرات: أي

خيّرات بالتشديد تخفف كما جاء في الحديث «هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ» ، مقصورات في الخيام : أى مخدرات : يقال امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لا تطوف في الطرق . قال قيس بن الأسدي :

وتكسل عن جارائها فيزرنها وتعتلّ من إيمانهن فتعذر

والخيام : واحدها خيمة وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وبر فهو خباء ، والرفرف واحده رفرفة : وهى الوسادة (الخدّة) أو ما تدلى من الأسرة من غالى الثياب ، والعبرى : منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد يسكنه الجن ويسندون إليه كل شيء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط ، تبارك اسم ربك : أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

المعنى الجملى

هذا تميم نوصف الجنات بما يشوق الراغبين فيها ، ليعملوا ما يوصاهم إليها ، ويرضى ربهم عنهم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(ومن دونهما جنتان . فهأى آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فهأى آلاء ربكما تكذبان) أى ومن وراء هاتين الجنتين وأقل منهما فضلاً جنتان تديتان النبات والرياحين الخضراء التى تضرب إلى السواد من شدة خضرتها ، لكثرة لونها ، وأما الجنتان السابقتان ففيهما أشجار وفواكه ، وفرق ما بين الحائين . فهأى هذه النعم تكذبان وهى نعم واضحة لا يتجحد ولا تنكر .

قال الحسن : الأوليان للسابقين والأخريان للمتابعين ضم .

عن أبى أيوب الأنصارى قال : « سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله مدهامتان قال : خضراوان » أخرجه الطبرانى وابن مردويه .

(فيهما عينا نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) النضح كالرش فهو دون الجرى ، ومن ثم قال البراء بن عازب في أخرجه عنه ابن المذخر وابن أبي حاتم : « العينا اللتان تجريان خيرا من النضاختين » .

أى فيهما عينا تفوران بالماء . وقال مجاهد : نضاختان بالخير والبركة .
(فيهما فاكهة ونخل ورمان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) خص النخل والرمان مع دخولهما فى الفاكهة ، تنديها إلى مالهما من ميزة عن غيرهما من الفواكه ، لأنهما يوجدان فى الخريف والشتاء ، ولأنهما فاكهة وإدام ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « وَمَلَأْ كَيْتَهُ وَرُسُلَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

(فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه .
روى الحسن عن أمه عن أم سمة قالت : « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله أخبرنى عن قوله تعالى خيرات حسان ؟ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه » .

وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن . وروى أن الحوريقنين : نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام .

(حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وهؤلاء الخيرات الحسان واسعات العيون مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسن بطوافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء للملازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة .

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) تقدم الكلام فى نظيره قبل .

(متكئين على رفرف خضر وعبرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان)

أى وهم يتكثون على ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، وبسط لها أطراف فاخرة ، غاية في كمال الصنعة وحسن المنظر .

(تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) أى تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به وتفضل من نعم غوال ، ومنن عظام .

وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض والجنة والنار ، وعذب العاصين ، وأثاب المطيعين ؛ وآتاهم من فضله ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سورة الواقعة

هى مكية إلا قوله : « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ » فمدنية ، وعدة آياتها ست وتسعون ، نزلت بعد طه .
ووجه مناسبتها ما قبلها :

(١) إن كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) إنه ذكر فى السورة السابقة عذاب الجرمين ونعيم المتقين ، وفاصل بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم ، وبين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) إنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رج الأرض ، فكان السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعا سورة واحدة ، مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣)
 إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً
 مُنْبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨)
 وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)
 أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) .

شرح المفردات

وقعت : حدثت ، والواقعة القيامة ، لوعتها : أى لوقوعها ، كاذبة : أى كذب ،
 ورجت : زلزلت وحركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ،
 وبست : أى فتت وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم بس فلان السويق : أى لته ،
 وهباء : أى غباراً ، منبثاً : أى متفرقاً ، أزواجاً : أى أصنافاً . قال الراغب : الزوج
 يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ولكل قرينين
 منها ومن غيرها كالخف والفعل ، ولكل ما يقتن بآخر مماثلاً له أو مضاداً له
 والميمنة ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال : والعرب يقيمون باليمن ويتشاءمون
 بالشمال ، والمراد أصحاب المرتبة السنية ، والرفعة والقدر ، والسابقون : هم الذين سبقوا
 إلى الخيرات فى الدنيا ، والمقربون : هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم .

المعنى الجملى

حين تقع الواقعة ويحىء يوم القيامة لا تكذب نفس على الله فتكرهه ، إذ تحقق
 بالمعينة وشهد كل أحد ، أما فى الدنيا فما أكثر النفوس المكذبة به ، المفكرة له ،

لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المذبذبون في الآخرة .
ثم وصف هذه الواقعة بأنها تخفض أقواما وترفع آخرين ، وأن الأرض حينئذ
تزلزل فيندك ما عليها من جبال وأبنية ، وأن الجبال تنفتت وتصير كالغبار المنتشر
في الجو ، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجا ثلاثة : أصحاب الميمنة وأصحاب
المشأمة والسابقون .

الإيضاح

(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة) أى إذا قامت القيامة لا يكون لوقعتها
ارتداد ولا رجعة كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهر قاله الحسن وقتادة ؛ وقد يكون
المعنى - ليس فى وقت وقوعها كذب ، لأنه حق لاشبهة فيه .

ثم هوّل شأنها وعظم أمرها فقال :

(خافضة رافعة) أى هى خافضة لأقوام ورافعة لآخرين قاله ابن عباس ،
إذ الوقائع العظيمة شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول من ذل الأعزة
وعزّ الأذلة .

وفى هذا إيماء إلى ما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء
إلى درجات الجنات ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خفضت أعداء
الله إلى النار ، ورفعت أوليائه إلى الجنة .

(إذا رجت الأرض رجا) أى إذا وقعت الواقعة تزلزل الأرض زلزالا وتضطرب
اضطرابا شديدا طولا وعرضا ، فتندك الحصون والجبال ، وتهدم البيوت والصياصى .
قال الربيع بن أنس : ترجّ بما فيها كرج الغربال بما فيه .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » وقوله : « يَأْتِيهَا
النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

(وبست الجبال بساً) أى وتفقت الجبال تفتتا وصارت كثيبا مهيلا بعد أن كانت شامخة .

(فكانت هباء منبثا) أى فصارت كالهباء المنبث الذى ذرته الريح وفرقته . وقال قتادة : صارت كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح .

والخلاصة — إن الجبال تزول عن أماكنها حينئذ ، وتنسف نسفا ، وتكون كالعين المنقوش .

(وكنتم أزواجا ثلاثة) أى وصرتم أصنافا ثلاثة ، وكل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين ، فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معا زوجان ، فهنا أزواج ثلاثة لا زوجان .

ثم فصل هذه الأزواج فقال :

(فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) أى فأصحاب الميمنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أى شئ هم فى حالهم وصفتهم وسعادتهم ؟ والمراد أنهم فى حال هى الغاية فى الحسن والكمال .

ولا يخفى ما فى هذا من تفخيم شأنهم ، وتعظيم أمرهم ، وأنهم بلغوا حدا لا يقدر قدره من السعادة .

(وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أى وأصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، أى شئ هم فى حالهم ؟ والمراد أنهم بلغوا الغاية فى سوء الحال . وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر ، والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ، ولا تجعلنى فى شمالك ، أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين اه .

أخرج أحمد عن معاذ بن جبل « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قبض بيديه قبضتين وقال هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى » .

(والسابقون السابقون) أى والسابقون الذين يتقدمون غيرهم إلى الطاعات - هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت نغامة أمورهم ، وقد يكون المعنى والسابقون إلى طاعة الله تعالى هم السابقون إلى رحمته سبحانه ، فمن سبق في هذه الدنيا إلى فعل الخير كان في الآخرة من السابقين إلى دار الكرامة ، فالجزء من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم » أخرجه أحمد .
(أولئك المقربون. فى جنات النعيم) أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا حظوة عند ربهم ، وهم فى جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ
مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مَخْلُوقُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ
عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَقَفَ كَهْزِمًا يَنْخَبِرُونَ (٢٠) وَلَهُمْ طَيْرٌ مِمَّا
يَشْتَهُونَ (٢١) وَخُورٌ عَيْنٍ (٢٢) كَأَمْثَالِ الْأَنْهَارِ الْمَسْكُونِ (٢٣) جَزَاءُ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا
سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) .

شرح المفردات

الثلة : الجماعة قُتت أو كثرت ، وقيل الجماعة الكثيرة من الناس كما قال :
وجاءت إليهم ثلَّةٌ خندفِيَّةٌ بجيش كثير من السيل مُزِيد
موضونة من الوضن وهو : النسج : والولدان : واحد ولد ، مخلدون : أى
مبقون أبدا على هذه الصفة ، أكواب : أى آنية لاعمرها ولا خراطيم ، أبريق :
واحد لها إبريق وهو إناء له خرطوم . قال عدى بن الرقاع :

ودعوا بالصَّبوح يوما فجاءت به قَيْنَةٌ فى يمينها إبريق

كأس من معين : أى خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس وقتادة ، والمراد
أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، لا يصدعون عنها : أى لا يلحقهم صداع بسببها كما يحدث
ذلك فى خمر الدنيا ، ولا ينزفون : أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، يقال نُزِفَ
الشارب إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، يتخيرون : أى يختارون
ويرضون ، حور : واحدته حوراء : أى بيضاء ، عين : واحدته عينا : أى واسعة
العينين ، المكنون : المصون الذى لم تمسه الأيدي وهو أصفى وأبعد من التغير قال :

قامت تراءى بين سِجْفَى كَلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسمد

أو دُرَّةٌ صَدَفِيَّةٌ غَوَاصُهَا بهج متى يرها يُهَلِّ ويسجد

اتوا : أى هُراء لاخير فيه ، ولا تأثيا : أى ما يقال حين سماعه وقعم فى الإثم.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة : سابقون وأصحاب ميمنة
وأصحاب مشامة - أعقب ذلك بذكر ما يتمتع به السابقون من النعيم فى فرشهم
وطعامهم وشرابهم ونسائهم وأحاديثهم التى تدل على صفاء النفس وأدب الخلق
وسمو العقل .

الإيضاح

(ثلة من الأولين . وفئيل من الآخرين) أى وهم جماعة كثيرة من سالفى الأمم وقليل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويستأنس لهذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » .

(على سرر موضونة) أى على سرر منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ، قال الأعشى فى وصف الدرع :

ومن نسج دَاوُدَ مَوْضُونَةً تسير مع الحىَّ عِيراً فَعِيرَا
(متكئين عليها متكبين) أى متكئين على السرر ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، فهم فى صفاء وعيش رغد وحسن معاشرة ، لا يوجد فى نفوسهم من الشحناء والبغضاء ما يوجب الافتراق .

ثم ذكر ما هم فيه من ترف ونعيم ، وأنهم مخدومون فى شراهم وطعامهم ، مكفيون مثونة ما يريدون فقال :

(يطوف عليهم ولدان مخلدون) أى بطوف عليهم غلمان وخدم على صفة واحدة لا يكبرون ولا يتغيرون ، فهم دائماً على الصفة التى تسر الخدم إذا رأى الخادم .

(بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون) أى يطوفون عليهم بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق وخر تجرى من العيون ولا تعصر عصراً فهى صافية نقية لا تنقطع أبداً ، وهم يطلبون منها ما يريدون ، ولا صداع فى شربها ، ولا ذهاب منها للعقل كما فى خمر الدنيا .

روى عن ابن عباس أن فى خمر الدنيا أربع خصال : السكر والصداع والقيء والبول ، نزه الله خمر الجنة عنها .

وبعد أن وصف الشراب وصف الطعام فقال :

(وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون) أى ويطوفون بألوان من الفاكهة المختلفة المطاعم ، يختارون منها ما تميل إليه نفوسهم ، وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب ، فيأخذون منها ما يشتهون ، وفيه يرغبون .

وبعد أن ذكر طعامهم وشرابهم أعقبه بذكر نسائهم فقال :

(وحوور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون) أى ويتمتعون بنساء بيض مشرقات الوجوه تبدو عليهم نضرة النعيم ، وكأنهن اللآلىء صفاء وبهجة .

ثم ذكر السبب فى متعتهم بكل هذا النعيم فقال :

(جزاء بما كانوا يعملون) أى جازاهم ربهم على ما عملوا ، وأثابهم بما كسبوا فى الدنيا ، وزكوا به أنفسهم من صالح الأعمال ، ونصبوا له بأداء فروض دينهم على أتم الوجوه وأكملها ، فهم كانوا قوامين الليل ، صوامين للنهار « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وبعد أن وصف النساء وصف حديثهم حينئذ فقال :

(لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً . إلا قيلاً سلاماً سلاماً) أى لا يسمعون اللغو الهراء من الحديث ولا تُجر القول وما تنقزز منه النفوس الراقية ، ذات الأخلاق العالية . ولكن يسمعون أطيب السلام ، وسامى الكلام ، مما يستساغ كما قال سبحانه « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » .

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨)
وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا تَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا

أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠).

شرح المفردات

السدر : شجر النبق ، مخضود : أى خضد شوكة أى قطع ، والطلع : شجر الموز ، منضود : أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه فليست له سوق بارزة ، ممدود : أى منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، مسكوب : أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، فرش : واحدها فراش كسُرُج وسِرَاج ، مرفوعة : أى عالية منضدة ، عربا : واحدتهنَّ عروب كصبر وصبور ، أترابا : أى متساويات فى السن واحدتهنَّ تَرْب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال السابقين وبين ما لهم من نعيم مقيم ، فى جنات النعيم - أردف ذلك بذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة التى لاتنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ، ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

الإيضاح

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أى وأصحاب اليمين هم الغاية فى فخامة شأنهم ورفعة قدرهم وعلو منزلتهم .

وقد جاء هذا الأسلوب فى كلام العرب لإفادة المبالغة فى مدح أو ذم فيقولون فلان ما فلان .

ثم فصل ما أبهم من حالهم بقوله :

(فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكة كثيرة . لامقطوعة ولا ممنوعة) أى هم يتمتعون بجنان فيها السدر الذى قطع شوكه لا كسدر البرية فى الدنيا ، وفيها الموز الذى ملئ ثمرًا ، فلا تظهر له سيقان ، وفيها ظل ظليل يقيهم شديد الحر ووهج الشمس ، وفيها ماء مصبوب لا يحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه ، وفيها ضروب من الفاكهة التى لا تنقطع أبدًا ، ولا تمتنع عنهم فى وقت ، فهم يحدونها متى شاءوا وأحبوا .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(وفرش مرفوعة) أى وهم يجلسون على فرش وثيرة عالية وطيفة لا تنعب الجالس عليها .

وبعدئذ ذكر ما يتمتعون به من النساء فقال :

(إنا أشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين) أى إنا أعددناهن نساء أبكارا متحبيبات إلى أزواجهن ، إذ هن يحسن التبعل ، كلهن فى سن واحدة ، لا تمتاز واحدة عن أخرى ، وأعطيناهن لأصحاب اليمين .
وأعاد ذكر (لأصحاب اليمين) للتأكيد والتحقيق .

(ثلثة من الأولين . وثلثة من الآخرين) أى أصحاب اليمين جماعة من مؤمنى الأمم السالفة ، وجماعة من مؤمنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
وإنما لم يقل فى حق هؤلاء جزاء بما كانوا يعملون كما قال ذلك فى حق السابقين إشارة إلى أن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره .

وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ (٤١) فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)
وِظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مُتَرَفِّينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَأَنبَأَ
 مِثْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظًا مَا أَتَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ
 إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ
 إِنَّا نَسُفُّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمَسَكُذِّبُونَ (٥١) لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢)
 فَهَالِكُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ
 شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) .

شرح المفردات

السموم : حر نار ينفذ في المسام ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم :
 دخان أسود كما قال ابن عباس وابن زيد ، لا بارد ولا كريم : أى لاهو بارد كسائر
 الظلال ، ولا دافع أذى الحر من يأوى إليه ، مترفين : أى منعمين مقبلين على
 لذات أنفسهم لا يلبون على شيء مما جاء به الرسل ، يصرون : أى يقيمون ولا يقلعون ،
 والحنث العظيم : أى الذنب العظيم وهو الشرك بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابا
 من دون الله ، والميقات : ما وقت به الشيء والمراد به يوم القيامة ، وسمى به لأنه
 وقتت به الدنيا ، وشجر الزقوم : شجر ينبت في أصل الجحيم ، والهيم : واحداه أهيم
 وهو الجمل الذى يُصِبه الهيام (بالضم) وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل ،
 فتشرب حتى تموت أو تسقم سقما شديدا ، والنزل : ما يقدم للضيف إذا نزل ، ويوم
 الدين يوم الجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زوجين من الأزواج الثلاثة، وبين ما يلقاه كل منهم من عزمهم ،
 وشرف عظيم ، فى جنات ونعيم ، فى جملة شئونهم ، فى ما كلفهم ومشاربهم وفرشهم

وأزواجهم - أردف ذلك بذكر الزوج الثالث ، وبين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، فهو يتظلى في السموم ويشرب ماء كالمهل يشوى الوجوه ، ثم أعقبه بذكر السبب في هذا ، بأنهم كانوا في دنياهم مترفين غارقين في ذنوبهم ، منكبين هذا اليوم يوم الجزاء ؛ ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتماً وأن ما كلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة في هذا اليوم .

الإيضاح

(وأصحاب الشمال ، ما أصحاب الشمال) أى أصحاب الشمال في حال لا يستطيع وصفها ولا يقدر قدرها من نكال ووبال ، وسوء منقلب .
ثم فسر هذا المبهم بقوله :

(في سموم وحميم . وظل من محموم . لا بارد ولا كريم) أى هم في حر ينفذ في المسام ، وماء متناه في الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم يؤلم من يستظل به .
قال ابن جرير : العرب تضيع هذه اللفظة (الكريم) في النفي فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة اهـ .

وذكر السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموماً ، وماءهم الذى يستغيثون به حميماً ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنعمها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بحالهم مع أحرّها ؟ .

ونحو الآية قوله تعالى : « انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَافَقَصٍ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ » .

والخلاصة — إن السموم تضربهم فيعطشون ، وتلتهم تارة أحشاءهم فيشربون الماء فيقطع أمعاءهم ، ويريدون الاستظلال بظل فيكون ظل اليعحوم .

ثم ذكر السبب في تعذيبهم فقال :

(إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟) أى إنهم كانوا في الدنيا منعمين بالأنوار من المآكل والمشرب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة ، منهمكين في الشهوات ، فلا جرم عذبوا بنقضها ، إلى أنهم كانوا ينكرون هذا اليوم ويقولون : أنبعث نحن وآباؤنا الأولون ونعود كرة أخرى وقد صرنا أجسادا بالية ، وعظاما نخرة ؟ .

والخلاصة — إنهم كانوا يتمتعون بوافر النعم وجزيل المنن ، وهم مع ذلك أصروا على كفرانهم ولم يشكروا أنعم الله عليهم ، فاستحقوا عقاب ربهم ، وكانوا مكذبين بهذا اليوم ، مستبدين وقوعه ، وركبوا رؤوسهم فلم يلوا على شيء ، وهاموا في أودية الضلالة ، وساروا في سبيل الغواية ، لا رقيب ولا حسيب .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر أسباب العقاب ، ولا يذكر أسباب الثواب ، لأن الثواب فضل ، والعقاب عدل ، والفضل إن ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص ولا ظلم ، أما العدل فإن لم يعلم سببه فرمى بظن أن هذا ضرب من الظلم .

وقد ذكروا لاستبعاد هذا المبعث أسبابا :

(١) الحياة بعد الموت .

(٢) طول العهد بعد الموت حتى صارت اللحوم ترابا والعظام رفاتا .

(٣) بلغ الأمر منهم أن قالوا متعجبين : أو يبعث آباؤنا الأولون ؟

فرد الله عليهم كل هذا ، وأمر رسوله أن يحيبهم .

(قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أى أجهم قائلًا لهم : إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم أشد الاستبعاد ، والآخرين الذين تظنون أن لن يبعثوا - ليجمعون فى صعيد واحد فى ذلك اليوم المعلوم ، ولا شك أن اجتماع عدد لا يحصى كثرة أعجب من البعث نفسه .

ونحو الآية قوله فى سورة الصافات : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

ثم بين ما يلقاه أولئك المكذبون من الجزاء فى ما كلهم ومشاربهم فقال : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لا تكون من شجر من زقوم . فاثقون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم) أى أيها الذين ضللتهم أولاً فأصررتهم على الذنب العظيم ، إذ لم توحّدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتهم رسله فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم - إنكم لا تكون من شجر الزقوم فاثقون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك من ماء حارّ لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلاً .

وخلاصة ذلك إنه لزيادة العذاب لا ترتوون من شرب هذا الماء المقتن الحار فلا تمسكوا عنه ، بل يكون شربكم كشرب الإبل التى تشرب ولا تروى .

ثم بين أنه ليس هذا كل العذاب بل هو أوله وقطعة منه فقال : (هذا نزهم يوم الدين) أى هذا الزقوم المأكول ، والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار .

ولا يخفى ما فى هذا من التهمك بهم ، والتوبيخ لهم كما قال :
وكفّا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نُزلاً

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْأَمَوتَ وَمَا نَحْنُ
بِعَسَبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)
وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النِّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ
(٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا
فَطَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمْ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢)
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

شرح المفردات

تمنون : أى تقدفونه فى الأرحام من النطف ، تخلقونه أى تقدرونه وتصورونه
بشرا سويّا تام الخالقة ، قدرنا : أى قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، نبدل
أمثالكم : أى نمتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، فيما لا تعلمون : أى من الخلق
والأطوار التى لا تعهدونها ، فلولا تذكرون : أى فهلا تتذكرون ذلك ، تحرثون : أى
تبدرون حبه وتعملون فى أرضه ، تزرعونه : أى تبتغونه وتجهلونه نباتا يرف ،
حطاما : أى هشيما متكسرا متفتتا لشدة يسه بعدما أنبتنا ، تفكّهون : أى تعجبون
من سوء حاله ، مغرمون : أى معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال :

إن يعذب يكن غراما وإن يُقسط جزىلا فإنه لايبالى

محرومون : أى غير محدودين ، فليس لنا جَدَّ وحظ ، المزن : السحاب
واحدته مزنه ، أجاجا : أى ملحا زعاقا مرا لا يصلح لشرب ولا لزرع ، لولا : بمعنى
هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، تورون : أى تقدحونها وتستخرجونها
من الزناد ، تذكرة : تذكيرا بالبعث ، ومتاعا : أى منفعة ، المقوين : أى للمسافرين
الذين يسكنون القواء : أى القفر والمقاوز ، فسيح : أى تعجب من أمرهم ، وقل :
سبحان الله العظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها وفصل ما يلقاه السابقون
وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لازب
فى جهنم وغساق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره
وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء - أردف ذلك بـإقامة الأدلة على الألوهية من
خلق ورزق لطعام وشراب ، وأقام الدلائل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل
الثالث وهو النبوة فيما بعد .

الإيضاح

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى نحن بدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا
مذكورا ، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإنبادة بطريق الأولى ؟ فهلا
تصدقون بالبعث .

وفى هذا تقرير للمعاد ، ورد على المكذبين به ، المستبدين له من أهل الزيف
والإلحاد الذين قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » .
ثم أعاد الدليل فقال :

(أفأرأيتم ما تمنون ، ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) أى أخبروني عما قدقتم به في الأرحام من النطف : ءأنتم تقدرونه بشرا سويا تام الخلق أم الله الخالق لذلك ؟ . ولا شك أنهم لا يجدون إلا جوابا واحدا لاثنى له .

والخلاصة — أخبروني أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم بعد مماتكم — عن النطف التي تمنون في أرحام نساءكم ، ءأنتم تخلقونها أم نحن الخالقون لها ؟ .

(نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون) أى نحن قسمنا الموت بينكم ، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لايعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتى بأشباهم من الخلق ، وننشئكم فيما لاتعلمون من الأطوار والأحوال التي لاتعهدونها .
والخلاصة — نحن قدرنا بينكم الموت لأن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم ، ونجىء بآخرين من جنسكم ، فنحن نमित طائفة ونبدلها بطائفة أخرى قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل .

ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال :

(ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) أى لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة وهى البداية قادر على النشأة الأخرى وهى الإعادة بطريق الأولى كما قال : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال : « أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُنْ نَطْعَةً مِّنْ مَّنًى يُمْنًى ؟ ثُمَّ كَانَ عِلَاقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » .

وفى الحديث « عجبا كل العجب المكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسى لدار الغرور » .

ثم أردف ذلك بدليل آخر في الرزق في المطعم فقال :

(أفأريتم ما تحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) أى أخبروني عن الحرث الذى تحرثونه ، ءأنتم تلبثونه أم نحن الذين نلبثه ؟ أى ءأنتم تصيرونه زرعاً أم نحن الذين نصيروه كذلك ؟ .

وروى عن حُجْر المذرى أنه كان إذا قرأ (ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وأمثالها يقول : بل أنت يارب .

(لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت نفسيهم . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون)
أى نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناها لكم ، ولوشقنا لأيسناها قبل استوائها واستجدادها ، فأصبح لا ينتفع به فى مطعم ولا فى غذاء ، فصرتم تعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتم فيه من الخطرة والنضرة والبهجة والرياء ، وتقولون : حقاً إنا لمعذبون مهلكون لهلاك أرزاقنا ، لا بل هذا أمر قدّر علينا لنحس طالعنا ، وسوء حظنا .

والخلاصة — لو نشاء لجعلناه هشي متكسراً لشدة يسه ، فأقمتم تعجبون مما نزل بكم ، ويعجب بعضكم بعضاً لذلك وتقولون إنا لمعذبون ، لا بل نحن محرومون غير محدودين لنحس طالعنا وسوء حظنا .

ثم أعقبه بدليل آخر فى المشروب فقال :

(أفأريتم الماء الذى تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) أى أفأريتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ، ءأنتم أنزلتموه من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟

(نو شاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون) أى لو نشاء لجعلناه مجاجاً لا تنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذاباً زلالاً ؟
« أَلَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذى سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » .

(أفرأيت النار التى تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) أى أفرأيت النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، ءأنتم أنشأتم شجرتها التى منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟ .

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المرخ بالعقار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العقار وبقطعة عريضة من المرخ يحفرون فى وسطها حفرة ثم يضعون عود العقار فى هذه الفجوة ، ويأتى فتي من قبيلة ويحرك عود العقار فيها بالتوالى ، ويأتى بعده آخر ويصنع صنيع سابقه ، ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان كل بيت فى القبيلة إذا رأى النار موقدة ستعار جذوة منها ، وإلى هذا أشار قوله سبحانه فى قصص موسى « إِنِّى آتِسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » . ثم بين منافع هذه النار فقال :

(نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) أى نحن جعلنا النار تبصرة فى أمر البعث حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ، ويذكروا بها ما أوعدوا به . لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها فهو قادر على إعادة ماتفرقت موادها ، ومنفعة لمن ينزلون القواء والمفاوز من المسافرين ، فكم من قوم سافروا ثم أرموا فأججوا نارا فاستدفئوا وانتفعوا بها ؛ وقد كان من لطف الله أن أودعها الأحجار ، وخالص الحديد ، فيتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، وإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى وأوقد نارا فطبخ بها واصلطى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها فى وجوه المنافع المختلفة .

وفي الحديث « المسلمون شركاء في ثلاثة : النار والكلا والماء » .
وقد يكون المعنى : وجعلناها تذكرة وأنموذجا من نار جهنم لما في الصحيحين
وغيرهما عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التي توقدون جزء
من سبعين جزءا من نار جهنم » .
(فسبح باسم ربك العظيم) الذى خلق هذه الأشياء بقدرته ، نخلق الماء العذب
البارد ، ولو شاء لجعله ملحا كالبهار والمحيطات ، وخلق النار وجعل فيها منافع للناس
في معاشهم ، وجعلها تبصرة لهم في معادهم .

فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)
إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا
الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ
مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ (٨٢) .

شرح المفردات

لأقسم : هذا قسم تستعمله العرب في كلامها ، ولا مزيدة للتأكيد مثلها في قوله :
« لَيْلًا يَنْفَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ » ، ومواقع النجوم : مساقط كواكب السماء ومغاربها ،
مكنون : أى مصون عن التغيير والتبديل ، المطهرون : أى المزهون عن دنس
الخطوط النفسية ، مدهنون : أى متهاونون كمن يدهن في الأمر : أى يلين جانبه
ولا يتصلب فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء — أعقب هذا بذكر الأدلة
على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يروونه في مشاهداتهم من

مساقط النجوم ، إنه لكتاب كريم لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل عليه السلام ، فكيف تنهونون في اتباع أوامره والاتباء عن نواهيه ، وتعملون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم .

الإيضاح

(فلا أقسم بمواقع النجوم) أى أقسم بمساقط النجوم ومغارها ، وإنما خص القسم بهذه الحال ، لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم ، ومن ثم استدل إبراهيم عليه السلام بالأفول على وجود الإله جلّت قدرته .

وقد أقسم سبحانه بكثير من مخوفاته العظيمة ، دلالة على عظم مبدعها ، فأقسم بالشمس والقمر ، والليل والنهار ، ويوم القيامة ، والتين والزيتون ؛ كما أقسم بالأمكنة فأقسم بطور سينين ومكة المكرمة .

ويرى أبو مسلم الأصفهاني وشيخ زمة من المفسرين : أن لا ليست مزيدة والكلام على ظاهره المتبادر منه ؛ والمعنى : لا أقسم : إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما ، فضلا عن هذا القسم العظيم .

(وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) أى وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك . وفى هذا تفخيم المقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة . وكما الحكمة وفطر الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته ، ألا يترك عباده سدى .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال :

(إنه لقرآن كريم) أى إن هذا القرآن حم المنافع ، كثير الفوائد ، فقد اشتمل على ما فيه صلاح البشر فى دنياهم وآخرتهم .

قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيّنات ، والعلم والحكمة ، فالعقبة يستدل به يأخذ منه ، والحكيم

يستمد منه ويحتاج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه .

(فى كتاب مكنون) أى فى لوح محفوظ مصون عن غير المقربين من الملائكة الكرام .

(لا يمسه إلا المطهرون) أى لا يمس هذا اللوح إلا المنزهون عن دنس الأرجاس والحطوط النفسية ؛ وقد يكون المراد : لا ينزل به إلا المطهرون وهم الملائكة الكرام ، أو لا يمس هذا القرآن إلا المطهرون من الحدث الأصغر والحدث الأكبر ، والمراد بذلك الهى أى لا ينبغي أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة .

أخرج ابن أبى شعبة فى المصنف وابن المنذر والحاكم عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان الفارسى فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا ثم خرج إلينا ، فقلنا لو توضأت فسألتك عن أشياء من القرآن ، فقال : سألنى فأنى لست أمسه ، إنما يمسه المطهرون ، ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) .

وذهب جمهور العلماء إلى منع الحدث عن لمس المصحف ، وبذلك قال على وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى .

وروى عن ابن عباس والشعبي فى جماعة منهم أبو حنيفة أنه يجوز للمحدث مسه ، راجع شرح المنتقى للشوكانى .

وقال الحسين بن الفضل : المراد أنه لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق .

(تنزيل من رب العالمين) أى وهو منزل نجوما من لدن رب العالمين ، فليس بالسحر ولا الكهانة ولا الشعر ، وهو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه شىء نافع .

وبعد أن بين مزاياه وأنه من لدن عليم خبير ذكر أنه لا ينبغي التهاون فى أوامره ونواهيه ، بل ينبغى التمسك به فقال :

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) أى أفبهذا القرآن تنهاونون ، وتوافقون باللسان وأنتم مصرون على الخلاف ، فتارة تقولون إنه سحر ، وأخرى تقولون إنه كهانة ، وطورا تقولون إن البعث محال ، أفاذا متنا وكنا ترابا أننا لمبعوثون ؟ إلى نحو هذا من أقاويلكم التى تدل على ما تكنه نفوسكم من التكذيب بالقرآن وبمن جاء به .

قال البقاعى : فهو على هذا إنكار على من سمع أحدا يتكلم فى القرآن بما لا ينيق به ، ثم لا يجاهره بالعداوة .

وابن العربى الطائى صاحب النصوص ، وابن الفارض صاحب النائية أول من صوبت إليهما هذه الآية ، فإنهما تكهما فى القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا ويحله عروة عروة ، فهما من أضر الناس على هذا الدين ، ومن يتأول لهما أو ينافح عنهما أو يعتذر لهما أو يحسن الظن بهما مخالفا لإجماع الأمة — فهو أعجب حالا منهما ، فإن مراده إبقاء كلامهما الذى لا أفسد للإسلام منه من غير أن يكون لابقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه اه بتصرف .

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى وتجعلون الشكر على هذا أنكم تكذبون بمن منح هذا الرزق ، فتنسبونه إلى الأنواء وتقولون مُطرنا بنوء كذا ، دون أن تقولوا أفاض الله علينا الرزق من لذه ، ومنحنا الفضل برحمته .

والخلاصة — إنكم تضعون الكذب مكان الشكر ، وهذا على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً » أى لم يكونوا يصلون ، لكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة .

قال القرطبى : وفى هذا بيان لأن ما يصيب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بالشكر إن كان نعمة وبالصبر إن كان مكروها ، تعبداله وتذلالا اه .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (٩٤) إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

شرح المفردات

لولا : حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب ،
والحلقوم : مجرى الطعام ، ونحن أقرب إليه منكم : أى علما وقدره ، مدنين : أى محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين من قوهم دان السلطان الرعية إذا استذلهم واستعبدهم ، والروح : الاستراحة ، ريحان : أى رزق ، من المكذبين الضالين .
هم أصحاب الشمال ، فنزل : أى فجزأؤه نزل ، وتصلية جحيم : أى إدخال فى النار ،
حق اليقين : أى حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جحودهم بآيات الله وتكذيبهم رسوله وكتابه ، وقولهم فيه : إنه سحر وافتراء ، واعتقادهم أن رزقهم من الأنواء — أردف ذلك بتوبيخهم على ما يعتقدون ، فإنه إذا كان لا بد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، لأن الخالق إما الله وإما أنتم ، فإذا نفيت الله فأنتم الخالقون ،

وإذا فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجموها ، الحق أنكم لاتعقلون الدليل والبرهان ، بل لاتفهمون إلا المحسوسات ، فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة ، فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدم وجوده .

ثم بين حال المتوفى ، ومن أى الأزواج الثلاثة هو ، فإن كان من السابقين فله روح واطمئنان نفس ، علما منه بما سيلقاه من الجزاء ، ورزق طيب فى جنات النعيم فيرى فيها ما تالد الأنفس ، وتقر به الأعين ، وإن كان من أصحاب اليمين فتسلم عليه الملائكة ، وتعطيه أمانا من ربه ، وإن كان من أصحاب الشمال فضيافته ماء حميم وعذاب فى النار أبدا .

ثم بين أن الخبر الذى أخبر به هو الحق اليقين ، وعليك أن تنزه ربك العظيم عن كل ما لا يليق به .

الإيضاح

(فلولا إذا بلغت الخلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون) أى فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجساد موتاكم حلاقيهم وأنتم ومن حضركم من أهليكم تنظرون إليهم ، ورسلا الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليهم منكم ولكن لاتبصرون — وجواب لولا هو ماسياتى بعد وهو (ترجعونها) . وخلاصة المعنى — إذا لم يكن لكم خالق وأنتم الخالقون ، فهلا ترجعون النفوس إلى أجسادها حين خروجها من حلاقيهم ؟

ثم كرر التحضيض مرة أخرى فقال :

(فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) أى فهلا ترجعون هذه النفس التى قد بلغت الخلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها من الجسد ، إن كنتم غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون .

وبعد أن ذكر حال المحتضرين أردفها بذكر حالهم بعد الوفاة وقسمها أزواجا ثلاثة فقال :

(١) (فأما إن كان من المقر بين . فروح وريحان وجنة نعيم) أى فإن كان المتوفى من الذين قرَّبهم ربهم من جواره في جناته ، فعمله ما أمر به ، وتركه ما نهى عنه ، فراحة واطمئنان لنفسه ، ورزق واسع من عنده ، وتبشره الملائكة بجنات النعيم ، وقد جاء في حديث البراء بن عازب : « إن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمريه ، فأخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان . »

(٢) (وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين) أى فإن كان المتوفى من أصحاب اليمين فتبشره الملائكة وتقول له : لا بأس عليك . أنت إلى سلامة . أنت من أصحاب اليمين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شِئْتُمْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ »

(٣) (وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) أى وإن كان المتوفى من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، فيقدم ضيافة له ماء حميم يصهر به مافى بطنه والجلود ، ويدخل في النار التى تغمره من جميع جهاته . (إن هذا لهو حق اليقين) أى إن هذا الذى ذكر فى هذه السورة من أمر البعث الذى كذبوا به ، ومن قيام الأدلة عليه ، ومن حال المقر بين وأصحاب اليمين ، وحال المكذبين الضالين — لهو حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه ، لتظاهر الأدلة القاطعة عليه ، كأنه مشاهد رأى العين .

(فسبح باسم ربك العظيم) أى فبعد أن استبان لك الحق ، وظهر لك اليقين ، فنزه ربك عما لا يليق به ، ثم ينسبه السكفار إليه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .
أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبه بن عامر الجهنى قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : اجعلوها فى سجودكم » .
والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

خلاصة موضوعات هذه السورة

- (١) اضطراب الأرض وتفتت الجبال حين قيام الساعة .
- (٢) إن الناس عند الحساب أزواج ثلاثة وذكر مآل كل زوج منها .
- (٣) اجتماع الأولين والآخرين فى هذا اليوم .
- (٤) إقامة الأدلة على وجود الخالق .
- (٥) إقامة البرهانات على اليعث والنشور والحساب .
- (٦) إثبات أن هذه الأخبار حق لاشك فيها .
- (٧) تبكيث المكذبين على إنكار الخالق .

سورة الحديد

هذه السورة مدنية ، وعدة آياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد الزلزلة .
ووجه مناسبتها لما قبلها .

- (١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .
(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح فكأنه قيل :
سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبحانه له مافى السموات والأرض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْبِى وَيُخْرِجُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)
هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ،
يَعْلَمُ مَا يَدْلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ
وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) .

شرح المفردات

جاء فى الكتاب الكريم سَبَّحَ وَيَسْبَحُ وَسَبَّحٌ ويقال : سبَّحته وسبَّحت له
كما يقال نصَّحته ونصحت له ، وتسبيح العقلاء أن يقولوا ما يدل على تنزيهه من كل

نقص ، وإبعاده عما لا يبيق به من صفات الحداثات ، كإثبات شريك له أو نِدْ ،
وكون الملائكة بنات له ، وكون عيسى ابنا له ، وتسبيح غيرهم دلالة وجوده على
عظم خالقه ، وانقياده له في كل آن .

وما مثل هذا إلا مثل إشارتك لصاحبك على وضع خاص يفهم منها تأنً واصبر ،
وإشارتك له على هيئة أخرى يفهم منها أنك لاتفعل هذا .

فهذه الدلالة في الحالين أفهمت صاحبك إفهاما كافهما الكلام ، بل أقوى
وأبلغ أثرا ، وكَمَ للإنسان في حركاته من معاني يفهمها الآخرون بطريق لاليس فيها .
وإذا كان هذا حال الإنسان المحدود العلم والإدراك ، فما بالك بما أطلعنا الله عليه
من بدائع العلم والحكمة ، وقد فهمنا منها ما لانفهم بالقول ، فلو أنك وقفت
في الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والأشجار مترنحات ، وأنواع الكلال
متحركات ، والأوراق تغنى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل
من الخالقين جحافل جنوده ، تلمع من بينها السكواكب ، فتضىء من بينها السبابس
لتجلى لك العبر ، وقرأت علوم المبتدأ والخبر ، ولعلمت أنها تحت قبضة ذى الملك
والمسكوت ، الحى الذى لا يموت ، الفرد الصمد ، المنزه عن الصاحبة والولد ، سُبح
قُدُّوس ، رب الملائكة والروح ، العزيز أى الذى لا ينازعه فى ملكه شىء ،
الحكيم : أى الذى يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب ، يحى ويميت : أى يحى
النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ، ويميت الأحياء ، وهو على كل من
الإحياء والإماتة قدير ، وهو الأول : أى السابق على سائر الموجودات ، والآخر :
أى الباقي بعد فنائها ، والظاهر والباطن : أى وهو الذى ظهرت دلائل وجوده
وتكاثر ، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وناطق
بذاته ، ومشرق بجماله وكأله ، وهو ظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته ،
وباطن بعمامه بما خفى منها فلا تخفى عليه خافية ، والمراد بستة الأيام ستة الأطوار ،

كما تقدم ذلك في سورة الأعراف ، والاستواء على العرش تقدم تفسيره في سورتي يونس وهود ، يلج في الأرض : أى يدخل فيها من كنوز ومعادن وبذور ، وما يخرج منها : كالزراع والمعادن لمنفعة الناس ، وما ينزل من السماء : كالمطر والملائكة ونحوهما ، وما يخرج فيها : كالأبخرة المتصاعدة والأعمال والدعوات . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل تقدم تفسير هذا فيما تقدم ، ذات الصدور : أى مكشوفات النفوس فهو العليم بالسرائر .

الإيضاح

(سبح لله ما في السموات والأرض) أى إن مادونه من خلقه ينزهه عن كل نقص تعظيماً له وإقراراً برؤيته ، وإذعاناً لطاعته كما قال : « تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو القادر الغالب الذى لا ينازعه شيء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه ، ونصريفها فيما شاء وأحب .

(له ملك السموات والأرض) أى له التصرف والسلطان فيهما ، وهو نافذ الأمر ، ماضى الحسب ، فلا شيء فيهن يمتنع منه .

(يحيى ويميت) أى يحيى ما يشاء من الخلق كيف شاء ، فيحدث من النطفة المميّنة حيواناً ينفخ فيه الروح ، ويميت ما يشاء من الأحياء بعد بلوغ أجله .

(وهو على كل شيء قدير) أى وهو ذو قدرة لا يتعذر عليه شيء أرادته من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال إلى نحو أولئك .

(هو الأول والآخر) أى هو الأول قبل كل شيء بغير حد كما جاء فى الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى »

وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية كما قال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » .
 (والظاهر والباطن) أى وهو العالى فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه ،
 وهو الباطن بذاته فلا تحوم حوله الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وباطن بعلمه
 بما بطن وخفى ، فلا شيء إليه أقرب من شيء كما قال : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
 حَبْلِ الْوَرِيدِ » .

(وهو بكل شيء عليم) أى وهو ذو علم تام بكل شيء ، فلا يخفى عليه شيء
 ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .
 (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أى
 هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما يهين فى ستة أطوار مختلفات
 ثم استوى على عرشه فارتفع عليه .

(يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم مايدخل فى الأرض من خلقه ،
 فلا تخفى عليه خافية منه ، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمار ومعادن كما قال :
 « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ
 مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا
 فِى كِتَابٍ مَّبِينٍ » .

(وما ينزل من السماء) من شيء كال مطر والملائكة .
 (وما يعرج فيها) أى وما يصعد إليها من الأرض كالأبجرة المتصاعدة والأعمال
 الصالحة كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .
 (وهو معكم أينما كنتم) أى وهو مطلع على أعمالكم أينما كنتم ، ويعلم
 متقلبكم ومثواكم .

(والله بما تعملون بصير) أى وهو رقيب عليكم ، سميع لكلامكم ، يعلم سركم
 ونجواكم كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ « وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل لما سأله عن الإحسان « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقال عمر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « زودنى حكمة أعيش بها ، فقال : استمع الله كما تستحي رجلا من صالحى عشيرتك لا يفارقك » .
وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفى عيه يغيب

(له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور) أى هو المالك لما فيهما ، والمدير لأمرهما ، والنافذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيمضى بينهم بحكمه كما قال « وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى » وقال : « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أى يقبض الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء : فتارة يطول الليل ويقصر النهار والعكس بالعكس ، وتارة يتركهما معتمدين ، وحينئذ يجعل الفصل شتاء أو ربيعاً أو قيظاً أو خريفاً ، وكل ذلك بتدبيره وفائدة خلقه .

(وهو عليم بذات الصدور) أى وهو عليم بالسرائر وإن دقت وخفيت ، فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر .
وفى ذلك حث لنا على النظر والتأمل ثم الشكر على ما أولى وأنعم .

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلْ أُولَئِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١).

شرح المفردات

مستخفين فيه : أى جعلكم سبحانه خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ، أخذ الميثاق : نصب الأداة فى الأنفس والآفاق والتمكين من النظر فيها ، والآيات البينات : هى القرآن ، والفتح : هو فتح مكة ، والحسنى : أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، يقرض الله : أى ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته وعلمه وقدرته ببيان أن كل ما فى السموات والأرض فهو فى قبضته يصرفه كما يشاء على ما تقتضيه حكمته ، ثم ذكر أنواعاً من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأوماً إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية ، وأمر بدوام الإيمان الكامل الذى له آثاره العملية من إخبات النفس لله وإخلاص العمل له ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن

ثم طلب إنفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردّة فهو ملك الله وأنتم خلفاؤه فى تشميره فى الوجوه التى فيها خير لكم ولأمتكم ولدينكم ، ولكم على ذلك الأجر الجزيل الذى يضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول ، وقد أخذ عليهم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم تخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، والله رءوف بكم إذا أنقذكم من هاوية الشرك وهداكم إلى طاعته ، ثم ذكر فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقلّ المعين ، فهؤلاء لا يستوفون مع من فعل ذلك بعد الفتح وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى والأجر الكريم عند ربهم ؛ ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضاله ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجمل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

الإيضاح

(آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى أقروا بوحداية الله وصدقوا رسوله فيما جاءكم به عن ربكم - تناولوا الفوز برضوانه ، وتدخلوا فراديس جناته ، وتسلموا بما لم يدر لكم بخلد ، ولم يخطر لكم ببال .

(وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) أى وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيديكم من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، والله درّ لبيد إذ يقول :

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بد يوماً أن تُردَّ الودائعُ

وفى هذا ترغيب أيما ترغيب فى الإنفاق . لأن من عم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه - علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره ، وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال شُعْبَةُ : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

« انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « أَهْلَاكُمْ التَّكَاثُرُ »
يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست
فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس » رواه مسلم .

ثم حث على ما تقدم من الإيمان والإنفاق في سبيل الله فقال :

(فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) أى والذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله
منكم ، وأنفقوا مما خولهم الله عن قبلهم - في سبيل الله ، لهم الثواب العظيم عند
ربهم ، وهناك يرون من الكرامة والمثوبة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،
ولا خطر على قلب بشر .

ثم ونهجهم على ترك الإيمان الذى أمروا به ، وأبان أنه ليس لهم فى ذلك من
عذر فقال :

(وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟) أى وأى شئ
يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج
والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه : « أى المؤمنين
أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا الملائكة ، قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ، قالوا
فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ، قالوا فنحن : قال : وما لكم
لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجهلون بعدكم يجدون
صحفاً يؤمنون بما فيها » .

(وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) أى وقد أخذ الله عليكم الميثاق بما نصب
لكم من الأدلة على وحدانيته فى الكون ، أرضه وسماؤه ، برّه وبحره ، وفى الأنفس
بما تشهدون فيها من بديع صنعها ، وعظيم خلقها ، إن كنتم تؤمنون بالدلائل العقلية والنقلية .
وصفوة القول : إن الأدلة تظاهرت على وجوب الإيمان بالله ورسوله ، فقد نصب

فى السكون ما يرشد إلى وجوده ، وأرسل الرسل يدعون إلى ذلك ، وأقاموا البراهين على صدق ما يقولون ، فما عذرکم ، وإلام تستندون فى رد هذا ؟ .

الآن قد تبين الرشد من الغى ، وأفصح الصبح لندى عينين ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فهل من مدكر ؟

ثم قطع عليهم الحجة وأزال معذرتهم فقال :

(هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجکم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بکم لرؤوف رحيم) أى وهو الذى ينزل على رسوله دلائل واضحات ، ليخرجکم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ولرافته بکم هداكم إليه على أتم وجه ، ويمكن لکم من النظر فى الأنفس والآفاق .

وبعد أن ونجهم على ترك الإيمان ، ونجهم على ترك الإنفاق ، وأبان أنه لامعذرة لهم فى ذلك فقال :

(وما لکم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات الأرض) أى وما لکم أيها الناس لا تنفقون مما رزقکم الله فى سبيله ؟ وأموالکم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتکم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثا .

والخلاصة — أنفقوا أموالکم فى سبيل الله ، ليكون ذلك ذخرا لکم عند ربکم قبل أن تموتوا فلا تقدروا على ذلك ، إذ تصير الأموال ميراثا لمن له السموات والأرض .

ثم بين تفاوت درجات المنفقين على حسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق فقال :

(لا يستوى منکم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) أى لا يستوى من آمن وهاجر وأنفق ماله فى سبيل الله قبل فتح مكة ، ومن أنفق من بعد الفتح — ذاك أنه قبل فتحها كان الناس فى جهد وضيق ولم يؤمن إذ ذاك إلا الصديقون ، أما بعد الفتح فقد انتشر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ومن ثم قال :

(أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك . (وكلا وعد الله الحسنى) أى وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في مقدار الجزاء كما قال في آية أخرى « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » .

أخرج أحمد عن أنس قال : « كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيرون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغت أعمالهم » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا أصحابى ، فوانذى نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه » .
ثم وعد وأوعده فقال :

(والله بما تعملون خبير) أى والله عليم بظواهر أحوالكم وبواطنها ، فيجازيكم بذلك ، ولخبرته تعالى بكم فضل أعمال من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق بعده وقاتل ، وما ذاك إلا لعلمه بإخلاص الأول في إنفاقه في حال الجهد والضيق . ولأبى بكر الصديق الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها ، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يحزىه بها .

ثم ندب إلى الإنفاق في سبيله ، ووجه على تركه فقال :

(من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) أى من هذا

الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسبا أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بثبوته بالجنة ؟ .

وعن ابن مسعود قال : « لما نزلت هذه الآية : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ » قال أبو الدحداح الأنصارى يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرئى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : إني أقرضت ربى حائطى (بستانى) وكان له حائط فيه ستمائة مخلة ، وأم الدحداح فيه وعياها ، قال أبو الدحداح ففادها يا أم الدحداح ، قالت لبيك ، قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل ، قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقت منه متاعها وصبيانها ، فقال رسول الله : كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح « وهذا الأسلوب يستعمل فى الأمر العزيز النادر فيقال : من ذا الذى يفعل كذا ، إذا كان أمرا عظيما ، وعلى هذا جاء قوله : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ

وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْعَزَّوَجْ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا ، مَاؤَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) .

شرح المفردات

المراد بالنور هنا: ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من علم وعمل ، بشراكم :
أى ماتبشرون به . انظرونا : أى انتظرونا ، وأصل الاقتباس طلب القبس : أى
الجدوة من النار ، والسور : الحاجز ، من قبله : أى جهته ، بلى : أى كنتم معنا ،
فقتلتم أنفسكم : أى أهلكتموها بالمعاصي والشبهوات ، وتر بصتم : أى انتظرتهم
بالمؤمنين مصائب الزمان ، وارتبتم : أى شككتهم فى أمر البعث ، والأمانى : الأباطيل
من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام واحداها أمنية ، والغرور (بالفتح)
الشیطان ، والفدية والغداء : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، مأواكم : أى
منزلكم الذى تأوون إليه ، مولاكم : أى أولى بكم ، والمصير : المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بالإيمان والإنفاق فى سبيل الله ، وحث على كل منهما بوجود موجباته؛
فحث على الإيمان بوجود الأسباب التى تساعد عليه وهى وجود الرسول بين أظهرهم ، وكتابه
الذى يتلى بين أيديهم ، وحث على الإنفاق فأبان أن المال إنما هو مال الله وهو عارية
بين أيديهم ثم يرد إليه ، وأنهم يبالغون على إنفاقه الأجر العظيم فى جنات النعيم ،
ثم ذكر أن المنافقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين أكثر
النصير والمعين - ذكر هنا حال المؤمنين المنافقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسرى بين
أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، وأنهم يبشرون بجنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها أبدا ، ثم أردفه بذكر حال المنافقين إذ ذاك ، وأنهم يطلبون من المؤمنين

شيئا من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل ، فيتهم بهم المؤمنون ويخيّبون
آمالهم ويقولون لهم : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف ، فلا نور
إلا منها ، ثم أرشد إلى أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلي المؤمنين فيه الرحمة ،
ومما يلي المنافقين فيه العذاب ، لأنه في النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه ، وهو أنهم
أهل كوا أنفسهم بالنفاق والمعاصي ، وانتظروا أن تدور على المؤمنين الدوائر ، فينطفئ
نور الإيمان ، وشكوا في أمر البعث وعرهم الشيطان فأوقعهم في مهاوى الردى ، ثم أعقبه
ببيان أنه لا أمل في النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع في الدنيا ،
فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

الإيضاح

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) أى لهم
الأجر الكريم حين ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم ما يكون السبب
في نجاتهم وهدايتهم إلى سبيل الجنة من العلوم التي كملوا بها أنفسهم في الدنيا
كلاعتقاد بالتوحيد وخالع الأنداد والأوثان ، والأعمال الصالحة التي زكوا بها
أنفسهم ، وبها أحبتوا إلى ربهم وأبوا إليه مخلصين له الدين ، وبأيمانهم تكون
كتبهم كما جاء في آية أخرى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ إِنِّي
أُهِلِّهِ مَسْرُورًا » .

(بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ونقول لهم
للملائكة : أبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفا لما قدمتم من صالح
الأعمال ، وجاهدتم به أنفسكم في ترك الشرك والآثام ، وكنتم تذكرون الله بالليل
والنفس نيام ، فطوبى لكم وهنيئا بما علمتم .

ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَتَنَمَّ عَقَبَى النَّارِ » .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى وذلك الخلود فى الجنات التى سمعتم أوصافها هو النجى العظيم الذى كانوا يطلبونه بعد النجاة من عقاب الله .

وبعد أن ذكر حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين فقال : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) أى فى هذا اليوم يقول المنافقون والمنافقات : أيها الذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) وفى هذا اليوم يقول المنافقون والمنافقات : أيها الذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس ، والعذاب الأليم الذى نحن مقبلون عليه ، فيجابون بما ينحيب آملهم ويلحق بهم الحسرة والندامة كما قال :

(قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أى ارجعوا من حيث أتيتم ، واطلبوا لأنفسكم هناك نورا ، فإنه لا سبيل إلى الاقتباس من نورنا الذى كان بما قدمنا لأنفسنا وادخرنا لها من عمل صالح ، فَأَيُّهَاَّتْ أَيُّهَاَّتْ أَنْ تَقَالُوا نورا إذ لا ينفع المرء حينئذ إلا عمله ، والله در القائل :

صاح هل رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فى الضَّرْعِ مَا قَرَى فى الحلاب ولا يخفى ما فى هذا من التهمك بهم ، والاستهزاء بطلبهم ، كما استهزءوا بالمؤمنين فى الدنيا حين قالوا آمنا ، وما هم بمؤمنين ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى حين يقال لهم : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » . ثم ذكر ما يكون بعد هذه المقالة فقال :

(فاضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) أى فاضرب بين الفريقين حاجز جانبه الذى يلى مكان المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة ، وجانبه الذى يلى المنافقين وهو النار فيه العذاب .

ثم أرشد إلى ما يكون من المنافقين حينئذ فقال :

(ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى واسكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) أى ينادى المنافقون المؤمنين :

أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا نَصْلِي مَعَكُمْ الْجَمَاعَاتِ ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بَعْرَفَاتِ ، وَنَحْضُرُ مَعَكُمْ الْغَزَوَاتِ ، وَنَوْدِي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ ؟ فَيَجِيبُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ قَائِلِينَ لَهُمْ : بَلَى كُنْتُمْ مَعَنَا ، وَاسْكُنْتُمْ أَهْلَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاللَّذَاتِ وَالْمَعَاصِي ، وَأَخْرَجْتُمْ التَّوْبَةَ ، وَشَكَلْتُمْ فِي أَمْرِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ ، فَقَلْتُمْ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَمَا زَلْتُمْ كَذَلِكَ حَتَّى حَضَرَكُمْ الْمَوْتُ ، وَغَرَّكُمْ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَكُمْ : إِنْ اللَّهُ غَفَوُكُمْ كَرِيمٌ لَا يَعْذِبُكُمْ . وَالْخِلَاصَةُ — إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا بِأَبْدَانِكُمْ لَا بِقُلُوبِكُمْ ، وَكُنْتُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِكُمْ ، فَلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . ثُمَّ أَيَأْسُوهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ ، وَأَنْتُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْخِلَاصِ مِنَ النَّارِ فَقُلْ :

(فَالْيَوْمَ لَا يَتُخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَا أَوَّاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أَيْ فَالْيَوْمَ لَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ بِمِلَّةٍ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدَى بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا قَبِلَ مِنْهُ ، فَمَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ وَإِلَيْهَا مُتَقَلِّبُكُمْ وَمِثْوَاكُمْ ، وَهِيَ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ آخَرَ ، لِكُفْرِكُمْ وَارْتِيَابِكُمْ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَمَا لَا . وَالْخِلَاصَةُ — إِنَّهُ لَا مَنَاصَ مِنَ النَّارِ فَلَا فِدَاءَ وَلَا فَكَّاكَ مِنْهَا .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) .

شرح المفردات

أَلَمْ يَأْنِ : أَلَمْ يَجِئْ وَقْتُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ أَيْ الْأَمْرُ أَنْيَاءً وَأَنَاةً وَإِنَاءً إِذَا جَاءَ أَنَاةُ أَيْ وَقْتُهُ ، وَالْخُشُوعُ : الْخُشْيَةُ وَالْخَوْفُ ، وَذَكَرَ اللَّهُ مَوَاعِظَهُ ، وَالْحَقُّ : هُوَ الْقُرْآنُ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَالْأَمَدُ : الزَّمَانُ ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ

أى طال عليهم العهد بينهم وبين أنبيائهم ، فقسست قلوبهم : أى صلبت وصارت كالْحِجَارَةِ أو أشد قسوة ، فاسقون : أى خارجون عن حدود دينهم رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواه ، والأرض الميتة : هى التى لا تنبت شيئا ، والآيات : هى البينات والحجج ، تعقلون : أى تتدبرون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة ، وأن الأولين لهم نور يهديهم إلى طريق الجنة ، وأن الآخرين يطلبون منهم أن يأتوهم قبسا من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة ، فيردونهم خائبين ، ويقولون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا - أردف هذا بعتاب قوم من المؤمنين ففرت همهم عن القيام بما ندبوا له من الخشوع ، ورقة القلوب بسمع المواعظ وسماع القرآن ، ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال العهد بينهم وبين أنبيائهم فقسست قلوبهم وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيهِ ، ثم أبان لهم بضرب المثل أن القلوب القاسية تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث والمطر .

روى عن ابن مسعود أنه قال : « لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد ، فكأنهم فقتوا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت الآية » .

وعن ابن عباس أنه قال : « إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ » .

الإيضاح

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِدُكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) أى أما أن المؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ ، فتعقروا له ، وتطيع أوامره ، وتنقهى عن نواهيهِ .

وإذا كان المؤمنون قد أصابهم الوهن ولم يمض على الإسلام أكثر من ثلاث عشرة سنة كما قال ابن عباس ، فما بالنا اليوم وقد مضى عليهم أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، فتعيرها عن حالهم الآن بالأولى ، فالوهن الآن أضعاف مضاعفة عما كان في تلك الحقبة ، ومن ثم أفرط الفرجة في إذلالهم واستعبادهم ، وصاروا غرباء في ديارهم ، والأمر والنهي فيها لسواهم :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ

ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب قبلهم فقال :

(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى لا يتشبهوا بالذين حُملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى حين طال الأمد بينهم وبين أنبيائهم ، فقست قلوبهم ولم تقبل موعظة ولم يؤثر فيها وعد ولا وعيد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبدوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المتناقضة ، وقلدوا في دين الله دون دليل ولا برهان ، واحذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وكثير منهم خرج عن أمر الدين في الأعمال والأقوال كما قال « فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ». أى فسدت قلوبهم انقضت وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، فتركوا الأعمال التى أمروا بها ، واجتروا ما نهوا عنه .

والخلاصة — إن الله نهى المؤمنين أن يكونوا حين سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم ، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم .

ثم ضرب للمثل لتأثير الموعظ وتلاوة القرآن في القلوب فقال :

(اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى إن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهذى النفوس الحيارى بعد ضلتها ،

ويفرّج الكروب بعد شدتها ، يبراهين القرآن ودلائله ، وبالمواعظ والنصائح التي
تلين الصخر الأصم ، ويحييها بعد موتها كما يحيي الأرض الهامدة المجذبة بالغيث الوابل
الهُتَّان ، وقد ضرب لكم الأمثال كي تتدبروا وتكمل عقولكم ؛ فسبحان الهادي لمن
يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد السكال ، وهو الفعال لما يشاء ، الحكم
العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير المتعال .

إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ
وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

شرح المفردات

المصدقين : أى المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوى الحاجة ، والقرض
الحسن : هو الدفع بنية خاصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ،
يضاعف لهم : أى يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ، والصديق : من كثر منه الصدق
وصار سجية ، والشهداء من قتلوا في سبيل الله ، واحدهم شهيد .

المعنى الجملى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق
يوم القيامة - ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

الإيضاح

(إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم)
 أى إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء
 ولا شكوراً - يضاعف لهم ربهم ثواب إنفاقهم فيقابل الحسنة الواحدة بعشر أمثالها ،
 ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، ولهم ثواب جزيل ومرجع صالح .

(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) أى والذين أقرؤا بوحداية
 الله وصدقوا رسله ، وآمنوا بما جاءهم به من عند ربهم . أولئك هم في حكم الله
 بمنزلة الصديقين .

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) أى والذين استشهدوا في سبيل الله
 لهم أجر جزيل ونور عظيم يسمى بين أيديهم ، وهم في ذلك يتفاوتون على حسب
 ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال .

والخلاصة — إن العاملين أقسام : فمنهم النبيون والصديقون والشهداء
 والصالحون كما قال تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » .

ولما ذكر السعداء وما لهم أردف ذلك بذكر حال الأشقياء فقال :

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى والذين كفروا بالله
 وكذبوا بحججه وراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار
 خالدين فيها أبداً بحيث لا يفارقونها .

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمِيبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
 وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ

يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْغُرُورُ (٢٠)
سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) .

شرح المفردات

اللعب : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ،
وزينة : أى كالملابس الفاخرة ، وتفاخر : أى بالأنساب والعظام البالية ، وتكاثر
فى الأموال والأولاد : أى مبهمة بكثرة العدد والعدد ، والغيث : المطر ، والسكرار
الزراع ، يهبج : أى يبتدىء فى اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضرا ، حطاما :
أى هشيما متكسرا من ييبسه ، والغرور : الخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم ويايمانهم ،
وحشمهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات - أردف
ذلك بوصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، وضرب لذلك مثل الأرض ينزل
عليها المطر فتنبت الزرع البهبج الناضر الذى يعجب الزراع لنمائه وجودة غلته ،
وبينا هو على تلك الحال ، إذا به يصفر بعد النضرة والخضرة ويجف ثم يتكسر
ويتفتت ، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة الآخرة ، فمن أجاد زرعه حصد ورجح ، ومن
توان وكسل ندم ولات ساعة مندم .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع العرور إذا أهلكك عن طلب الآخرة ، فَمَا إِذَا
دعيتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعمة المتاع ونعم الوسيلة .
ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول
في جنات عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلا منه ورحمة
وهو المنعم عظيم الفضل .

الإيضاح

(اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال
والأولاد) أى اعلّموا أيها الناس أن متاع الدنيا ماهو إلا لعب ولهو تتفكّيون به ،
وزينة تتزینون بها ، وبها يفخر بعضكم على بعض ، وتتباهون فيها بكثرة
الأموال والأولاد .

ثم ضرب مثلا يبين أنّها زهرة فانية ، ونعمة زائلة فقال :
(كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما)
أى ما مثل هذه الحياة في سرعة فنائها وانقضائها على عجل إلا مثل أرض أصابها
مطر وابل ، فأنبتت من النبات ما أعجب الزراع وجعلهم في غبطة وحبور ، ومهجة
وسرور ، وبينما هو على تلك الحال إذا هو يصوح ويأخذ في الجفاف واليبس ،
ثم يكون هشيما تذروه الرياح .

ونحو الآية قوله : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنَّزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَآخِذَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا آيِلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ » .

ثم ذكر عاقبة المتهمين فيها الطالبين لتحصيل لذاتها ، المتهالكين في جمع حطامها ، والمعرضين عنها الطالبين لرضوان ربهم فقال :

(وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) أى وفي الآخرة إما عذاب شديد دائم لمن انهمك في لذاتها ، وأعرض عن صالح الأعمال ، ودسّ نفسه بالشرك والآثام ، وإما مغفرة من الله ورضوان من لدنه لمن زكى نفسه وأخبت إلى ربه وأتاب إليه :

قدّم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غِرّة زَلْجًا
(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فانه زائل خادع من ركن إليه واغترّ به وأعجبه حتى اعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها .

ولما أبان أن الآخرة قريبة وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم - حث على المبادرة إلى فعل الخيرات فقال :

(سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى سابقوا أقرانكم في مضار الأعمال الصالحة ، وأدّوا ما كلفتم به من أوامر الشريعة واتركوا نواهيها - يخلصكم ربكم بما قدمتم لأنفسكم ، جنّة سعتها كسعة السموات والأرض .

ثم بين المستحقين لها فقال :

(أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) أى هيئت للذين اعترفوا بوحداية الله وصدقوا رسوله .

ثم بين أن هذا فضل منه ورحمة فقال :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى هذا الذى أعده الله لهم هو من فضله ورحمته ومنته عليهم .

وفي الصحيح « أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور (الأموال) بالأجور والدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال وما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال : أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتكم من بعدهم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، قال : فرجعوا فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع العطاء عظيم الفضل ، فيعطى من يشاء ما شاء كرمًا منه وفضلا ، ويبسط له الرزق فى الدنيا ، ويهب لهم النعم ، ويعرفهم مواضع الشكر ، ثم يميزهم فى الآخرة ما أعده لهم مما وصفه قبل .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) اِكْتِلَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَمْخُلُونَ بِأُنْزُورِ النَّاسِ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْجَمِيدُ (٢٤) .

شرح المفردات

فى الأرض : أى كالجذب والفاقة واحتلال الأجانب الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين ، فى أنفسكم : أى كالمريض والفاقة ، فى كتاب : هو اللوح المحفوظ ، نبرأها : أى نخلقها ، وتأسوا : أى تحزنوا ، ما فاتكم : أى من نعيم الدنيا ، ما آتاكم :

أى ما أعطاكم ، والختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، والفخور : هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن متاع هذه الدنيا زائل فان ، وأن ما فيها من خير أوشر لا يدوم - أوردف ذلك بتهوين المصائب على المؤمنين ، فذلك يكون مصدر سعادة نفوسهم وأطمئنانها ، وبدونه يكون شقاؤها وكآبتها ، وآية ذلك أن لا نحزن على فائت ، ولا تفرح بما يصل إليها من لذاتها الفانية .

ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ، ويأسرون الناس بذلك ، ويعرضون عن الإنفاق فلا يحزن إلا على أنفسهم ، والله غنى عنهم ، وهو الحمود على نعمه التى لا تدخل تحت حد .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) أى ما أصابكم أيها الناس من مصائب فى آفاق الأرض كقحط وجذب وفساد زرع ، أو فى أنفسكم من أوصاب وأسقام - إلا فى أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن علمه بالأشياء قبيل وجودها ، وكتابتها لها طبق ما توجد فى حينها - يسير عليه ، لأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون . أخرج الحاكم وصححه عن أبى حسان : أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله عنها فقلا إن أبا هريرة يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ، فقالت : والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، كان يقول « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة فى المرأة

والدابة والدار ثم قرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا .

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) أى أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تحزنوا على فائت ، ولا تفرحوا بآت .

والخلاصة — إن كل شيء قُدِّرَ في الكتاب ، فكيف نفرح أو نحزن ؟ .

فال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا .

وقال حكيم : الصبر مُخْرِجٌ مِنَ الشَّقَاءِ ، فلا سعادة إلا بالصبر ، ووصول النفس إلى كلها الخلق ، بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها ، فيصيبها مرة ويخطئها أخرى وهي مطمئنة ، لا يدخلها زهو ولا إعجاب بما نالت ، ولا حزن على ما فاتها . وعلى الجملة فالحزن المذموم هو ما يخرج بصاحبه إلى ما يذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، والفرح المنهى عنه هو الذى يطغى على صاحبه ويليه عن الشكر .

(والله لا يحب كل مختال فخور) أى إن المختال الفخور يبغيضه الله ولا يرضى عنه .

ثم بين أوصاف المختالين الفخورين فقال :

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) أى إن المختالين بما أوتوا من المال يضمنون به ، لأنهم يرون عزتهم في وجوده ، ويمدحهم الشيطان بالفقر إذا هم أنفقوه ، وقد يبلغ الأمر بهم أن يأمرؤا سوامم بالبخل ويبدوا لهم النصائح التى تجعلهم يضمنون به مدعين أن ذلك إشفاق عليهم ونصح لهم .

(ومن يقول فإن الله هو الغني الحميد) أى ومن يعرض عن الإنفاق فلا يضرن بذلك إلا نفسه ، فالله غنى عن ماله وعن نفقته ، محمود إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه ، ولا يضيره الإعراض عن شكره كما قال موسى عليه السلام لقومه : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

شرح المفردات

البيّنات : المعجزات والحجج ، والكتاب : أى كتب التشريع ، والميزان : العدل ، والقسط : الحق ، وأنزلنا الحديد : أى خلقناه ، والبأس : القوة ، وليعلم الله أى ليعلمه علم مشاهدة ووجود فى الخارج .

الإيضاح

(لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أى ولقد أرسلنا الأنبياء إلى أممهم ومعهم البراهين الدالة على صدقهم ، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم ، ومعهم كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ، وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا . ولما كان الناس فريقين فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان ما يزرع السلطان أكثر مما يزرع القرآن ، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه وهو الدولة والمالك وأعوانه والجند ، وهؤلاء لا بد لهم من عُدّة يحمون بها القانون والعدل فى داخل البلاد وفى خارجها أعقب هذا بقوله :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) أى وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم وتحمى المظلوم ، وفيه منافع للناس فى حاجاتهم فى معاشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أى وإنا فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكرع المجاهدة أعدائه، ونصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم. روى أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالسيوف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رحمى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » . (إن الله قوى عزيز) أى إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَ وَالْكِتَابَ
فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا
وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَا هَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ
اللَّهِ فَأَرَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، والإنجيل : الكتاب الذى أنزل على عيسى وفيه شريعته ، والمراد من الرأفة : دفع الشر ، ومن الرحمة : جلب الخير ، وبذا يكون

بينهم مودة ، والرهبانية : ترهبهم في الجبال فأرين دينهم من الفتنة ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، محتملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعب في الغيران والكهوف ، وقوله ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن في دينهم ، ابتغاء رضوان الله : أى طلبا لرضاه ومحبته ، فأرعوها : أى ما حافظوا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله - أتبع ذلك ببيان ما أنعم به على أنبيائه من النعم الجسام ، فذكر أنه شرف نوحا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة ، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتب ، فما جاء أحد بعدهما بالنبوة إلا كان من سلاسلهما .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) أى ولقد بعثنا نوحا إلى طائفة من خلقنا ، ثم بعثنا إبراهيم من بعده لقوم آخرين ، ولم نرسل بعدهما رسلا بشرائع إلا من ذريتهما .

ثم بين أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال :

(فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) أى فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضلال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان ، مدسّون أنفسهم باجتراح الآثام .

وفي الآية إيماء إلى أنهم خرجوا عن الطريق المستقيم بعد أن تمكنوا من الوصول إليه ، وبعد أن عرفوه حق المعرفة ، وهذا أبلغ في الذم وأشد في الاستهجان لعلمهم . (ثم قمينا على آثامهم برسلنا) أى ثم بعثنا بعدهم رسولا بعد رسول على توالى العصور والأيام .

ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة شريعته في عصر التنزيل ولوجود أتباعه في جزيرة العرب وغيرها فقال :

(وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل) أى ثم أرسنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى عاينه السلام ، وأعطيناه الإنجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء ما فيه مكلا لما فى التوراة وخفقا بعض أحكامها التى شرعت تغليظا على بنى إسرائيل ، انقضهم العهد والميثاق كما جاء فى قوله : « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » .

ثم بين صفات أتباع عيسى فقال :

(وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) أى إن أتباعه الذين ساروا على نهجه وشريعته اتصفوا بما يأتى :

(١) الرأفة بين بعضهم وبعض ، فيدفعون الشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ويصلحون ما فسد من أمورهم .

(٢) الرحمة فيجلب بعضهم الخير لبعض كما قال فى حق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٣) الرهبانية المبتدعة ، فقد انقطعوا عن الناس فى القلوات والصوامع معتزلين الخلق وحرّموا على أنفسهم النساء وابسوا الملابس الخشنة ، تبتلا إلى الله وإخباتا إليه .

(ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) أى ما فرضنا عليهم هذه الرهبانية ، ولكنهم استحدثوها طلبا لمرضاة الله والزلفى إليه .

ثم ذكر أنهم ما حافظوا عليها كما قال :

(فما رعوها حق رعايتها) أى فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة ، وما قاموا

بما التزموه حق القيام ، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى بن مريم فضموا إليه التثليث ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا .

وفي هذا ذم لهم من وجهين :

(١) إنهم ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به .

(٢) إنهم لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى ربهم ، وقد كان ذلك كالتنذر الذي يجب رعايته ، والعهد الذي يجب الوفاء به .

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن مسعود ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم ، فرقة من الثلاث وازت الملوك وقتلتهم على دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه فقتلتهم الملوك ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرائي قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، فقتلتهم الملوك بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالقيام بين ظهرائي قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى صلوات الله عليه ، فلحقوا بالبراري والجبال فترهبوا فيها فهو قول الله عز وجل « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » الآية ، فمن آمن بي واتبعني وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون » .

(فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون) أي فأتينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً طبعته آثاره في أعمالهم ، فزكوا أنفسهم ، وأخبتوا إلى ربهم ، وأدوا فرائضه - أجورهم التي استحقوها كفاء ما عملوا ، وكثير منهم فسقوا عن أمر الله ، واجترحوا الشرور والآثام ، وظهر فسادهم في البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكسكبوا في النار وباءوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْتَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

شرح المفردات

قال المؤرّج السدوسى : الكفل : النصيب بلغة هذيل ، وقال غيره بل بلغة الحبشة ، وقال المفضل الضبي : أصل الكفل كساء يديره الراكب حول سنام البعير ليتمكن من القعود عليه ، لئلا يعلم : أى الكى لا يعلم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من آمنوا من أهل الكتاب إيماناً صحيحاً لهم أجرهم عند ربهم - ذكر هنا أن من آمنوا منهم بيسى أولاً وبمحمد صلى الله عليه وسلم ثانياً يؤتيهم أجرهم مرتين ، لإيمانهم بنبيهم ، ثم بمحمد من بعده ، ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ورحمة منه لا يخصص به قوماً دون قوم ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، لا كما يقول اليهود : إن الوحي والرسالة فينا لاتعدونا إلى سوانا ، فنحن شعب الله المختار ، ونحن أبناء الله وأحباؤه .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله من

أهل الكتابين التوراة والإنجيل - خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم - يعطكم ضعفين من الأجر ، لإيمانكم بيسى والأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ثم بإيمانكم بمحمد بعد أن بعث نبيا ، ويجعل لكم هدى تستبصرون به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم ما أسلفتم من الذنوب وما فرطتم في جنب الله ، والله واسع المغفرة لمن يشاء ، رحيم بعباده يقبل توبتهم - متى أنابوا إليه ، وخشعت له قلوبهم .

والخلاصة - إنه تعالى وعد المؤمنين برسوله بعد إيمانهم بالأنبياء قبله بأمر ثلاثة :

(١) أنه يضاعف لهم الأجر والثواب .

(٢) أن يجعل لهم نورا بين أيديهم وعن شمالكهم يوم القيامة يهديهم إلى الصراط السوى ويوصلهم إلى الجنة .

(٣) أن يغفر لهم ما اجتروا من الذنوب والآثام .

روى الشعبي عن أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعقها وتزوجها فله أجران »
رواه البخاري ومسلم .

ثم رد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم فقال :

(لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يغالون شيئا من فضل الله من الأجرين ولا يتمكنون من نياله ما لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة ذلك — إن إيمانهم بنبيهم لا ينفعهم شيئا ما لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن أبي حاتم قال لما نزلت « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » غفر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولحكم أجر ، فاشتد ذلك على أصحابه فأنزل الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع الفضل كثير العطاء ، يمنحه من شاء من عباده لا يخلص به قوما دون آخرين ، ولا شعبا دون آخر .

سبحانك قسمت حظوظك بين عبادك بمقتضى عدلك وفضلك ، وآتيهم فوق ما يستحقون بمجودك وكرمك . فاللهم آتنا من لدنك الرشد والتوفيق ، واهدنا لأقوم طريق .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) صفات الله وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره في بدائع خلقه .

(٢) الحض على الإنفاق .

(٣) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة .

(٤) ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضا حسنا .

(٥) ذم الدنيا وأنها هو واهب .

(٦) الترغيب في الآخرة وتشهير العزيمة للعمل لها .

(٧) التسلية على المصائب .

(٨) ذم الاختيال والفخر والبخل .

(٩) الحث على العدل .

(١٠) الاعتبار بالأمم السالفة .

(١١) قصص نوح وإبراهيم .

(١٢) إن أهل الكتاب الذين آمنوا برسولهم وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

يضاعف لهم الأجر عند ربهم .

(١٣) الله يصطفى من رساله من يشاء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة

الديار المصرية في صبيحة يوم الجمعة لتسع بقين من رجب الأصم من سنة خمس وستين

بعد الثمانيئة والألف من هجرة سيد ولد عدنان ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	الفرق بين الإسلام والإيمان
١٢	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن جدل المشركين ومراءاتهم
١٧	ما أثبتته علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) حديثا
٢٠	الحسكة في مور السماء وسير الجبال
٢٤	محاسن المرأة التي يتمدح بها العرب
٢٨	ما قالته عائشة في وصف عذاب النار
٣٢	تحدى العرب في الإتيان بمثل القرآن
٣٥	أضر المشركين بإقامة الحججة على ما يدعون
٤٤	ما أثبتته علماء الفلك في النجوم حديثا
٤٥	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترج ولا يقول إلا حقا
٤٦	علينا أن نؤمن بما جاء في القرآن عن عالم الأرواح
٥٢	توبيخ المشركين على نسبة البنات إلى الله
٥٩	المشهور أن الكبراء مبيع
٦١	النهي عن تزكية النفس حين قصد الرياء
٦٣	ما تضمنته صحف إبراهيم وموسى
٦٥	يرى مالك والشافعي أنه لا يصح إهداء ثواب القراءة إلى الموتى
٦٨	سبب تخصيص الشعرى بالذكر من بين الكواكب
٧٣	ما تضمنته سورة النجم من الأسرار والأحكام

الصفحة	المبحث
٧٦	هل الشقاق القمر حدث أو سيمحدث
٨٤	يقولون إن سفينة نوح لا تزال باقية إلى الآن في موضعها
٨٧	ماروى من شؤم بعض الأيام لا يصح منه شئ
٨٩	كانت ناقة صالح فتنه لقومه
٩١	اتبع صالح مع قومه طريق المناوبة لناقته في شرب ماء البئر
٩٨	دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر
١٠٢	في الحديث : يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا
١٠٣	خلاصة موضوعات سورة القمر الكريمة
١٠٦	منة الله على عباده بالبيان والتبيين عما يحول في النفس
١٠٩	حكمة تكرار (فبأى آلاء ربكما تكذبان)
١١١	كيف خلق الإنسان الأول
١١٦	الدهر عند الله يومان
١٣٢	إذا وقعت الواقعة لا تكذب نفس على الله
١٣٣	ينقسم الناس يوم القيامة أزواجا ثلاثة
١٥١	آراء العلماء في تفسير قوله : لا يمسه إلا المطهرون
١٥٢	ابن العربي وابن الفارض أتيا بما هو بدع في الدين فرداه العلماء
١٦١	فائدة اختلاف الفصول وتوالى الليل والنهار
١٧٢	عتاب المؤمنين الذين فترت همهم عن القيام بشعائر الدين
١٧٩	ذهب أهل الدثور بالأجور — الحديث
١٨٤	ما أنعم الله به على أنبيائه من النعم الجسم
١٨٧	من آمن بعيسى ثم بمحمد يؤثمهم أجرهم مرتين